مازال هذا الليلُ يُنجبُ نجمةً

كميل حمادة

منشورات تكوين | نبوءات
TAKWEEN PUBLISHING

مازال هذا الليلُ يُنجبُ نجمةً

شعر

كميل حمادة

الكاتب: كميل حمادة
عنوان الكتاب: مازال هذا الليلُ يُنجبُ نجمةً
X
تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقامي
X
ر.د.م.ك: 978-9921-808-04-9
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2023
1000 نسخة
X
جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
X
منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
takween.publishing@gmail. takweenkw
com
takween_publishing TakweenPH
www.takweenkw.com

مازال هذا الليلُ يُنجبُ نجمةً

نعود من الحبِّ دوماً بِخُفَّيْ حَنين

(السيد «كاف»)

وحيداً سوى من يديك

وحيداً سوَى من يدَيكِ، بلا ذكرياتٍ، بلا أيِّ إسمٍ، بلا أيّ شيءٍ سواكِ، أسيرُ الى البحرِ هذا المساءَ، وأعبرُ في الليلِ [مثل الخواطر في بال شاعرةٍ غادرتْ أربعينَ السفرجلِ والتوتِ، لكنها لم تغادرْ سهوبَ المراهقةِ المستحيلةِ] أمشي، ويشربُ من خطوتي كلُّ هذا الشتاءِ، ويشتمُّ ظلّي الهوَى والنخيل.

ويسألني الظلُّ: مَن يا تُرى يُغرِقُ الليلَ والبحرَ غيرُكِ؟ مَن يملكُ الآن تعويذةً للمرور على لهفةِ الماء؟ من يمنحُ الملحَ في رئتيكَ التنفّسَ كي تستطيعَ الهروبَ إليها من المدنِ الحامضيّةِ؟ من سوفَ يُعطيكَ ما تشتهيه من الشعر والسُّكْرِ واللَّيلَكِ المستحيل؟

رصيفُ المنارةِ ملتَحفٌ بالبرودةِ، بيروتُ ليست كما تعرفينَ، لقد أسرفَ الحزنُ فيها ذبولاً، فزادت جمالاً كما أنتِ، كم يتضاعفُ حسنُ الأنوثةِ عند احتدام التأوُّه، بيروتُ مثلكِ، يمنحُها الحزنُ حسناً غريباً، كأنّكما كلُّ هذا الجَمال الملوّعِ، أو أنتما كلُّ هذا الشحوبِ الجميل.

أحاولُ أن أكتبَ الآن شيئاً إليكِ، فيسبقَني البحرُ: هيِّئ كلاماً بسيطاً، ودَعْ ترّهاتِ البلاغةِ واللغة الشاعرية، كُنْ تافهاً في القصيدةِ، كُنْ كحبيبٍ من البدْو يرعَى أيائلَ قوم الحبيبةِ عند أعالي المياهِ البعيدةِ، في سهلةٍ في البقاع، ويشردُ عند التَّذكُّر، يُطلقُ لَكْنَتَهُ بالغناء، وكن مثلَ موّالِ حزنِ العراقِ النبيل.

وأَسكُتُ، لا وقتَ للشِّعرِ، لا وقتَ للنثرِ، لا وقتَ للترّهات الغريبةِ، أنتَ أتيتَ إلى البحر كي تستريحَ من الناسِ والسّاسَة الأغبياء، ومن عبءِ هذي الحياةِ الثقيلة، فامحُ الكلامَ الذي في كلامِكَ، وامحُ القصيدةَ، واستمتعِ الآن بالبحر، بالمطرِ المُشتهي إذ يُهاجر من غيمةٍ في خيالي إلى سفحِ قلبِكَ، وارمِ المظلةَ، (هم خائنونَ كثيراً، أولئك من يمدحون الغيومَ التي تستريح على الأرض ثمّ يسيرونَ تحت المظلةِ كالخائفينَ) وحين يُتعْتِعُكَ السُّكْرُ والمشيُ فانزلْ إلى قهوةِ البحر واشربْ هنالك من شهوةِ البنّ والنحلِ والزنجبيل.

وأسكُتُ..

إني سكتُّ طويلاً ولن أُرسلَ الآن شيئاً اليكِ، سوَى ورْقةٍ من ثياب البلاد الفقيرةِ في الليل، لن أُرسلَ الشعر، لن أُرسلَ الترّهاتِ الغريبةَ، بعضُ البياض - السكوتِ سيكفي، ولن أُرسلَ الآن إلّا دمي بيتَ شعرٍ أُفَعِّل إيقاعَهُ وفْقَ حزني «الطويل».

وها إنّه البحرُ يخرجُ عن صمتِه ثم يأتي إلى مقعدي في شجون الرصيف، ويمسحُ شعري من الماء بالماءِ والأزرقِ الغرِّ، يهمسُ في جيب ثوبي قليلاً من الملح، ثم يربّتُ مثل العجوز الحكيمِ على كتفيَّ، ويفتحُ لي نحو هذي القصيدةِ باباً، يسمّيهِ بابَ النَّوى والرحيل.

أُحبكِ..

نافرةٌ مفرداتي، وخارجَ هذا السياق تجيءُ «أحبّكِ»، خارجَ ما يقتضيه التوقّع، أعرفُ أنّي أهرطقُ هذا المساء، وأعرفُ أني أقولُ كلاماً غبياً، ولكنه البحرُ والطقسُ والمطرُ الليلكيّ، وبيروتُ، لا لا يُلام البقاعيّ ُمما بهِ من تشوّشِ أفكارهِ هاهنا في المدينةِ، بيروتُ تفتحُ نافذةَ الذكريات، وتُرجعني نحو عينيكِ، أو نحو غمازَتيك؛ وغمازتاكِ كنجمَينِ ضاءا من الله عند التنزّه ليلاً، وغمازتاك القصائدُ في بال شاعرةِ الاربعينَ الشهيةِ، غمازتاكِ الضياعُ/الدليلُ، العبورُ /الرحيلُ، الغرابة, غمازتاكِ الكلامُ الذي قاله البحرُ لي في طقوسِ المنارة، غمازتاكِ الرصاصاتُ يثقبنَ قلبي، ليفتتحَ العاشقون قراءةَ أشعارهِم كلَّ يومٍ: على إسمهِ نبدأ الآن هذا الغناءَ البهيَّ: سلاماً عليكَ تموتُ من الحبّ، يقتلكَ الحبُّ حبّاً، سلاماً عليك بيوم ولدتَ من الحبّ والبحر/يوم تموتُ من الحب والبحرِ والحبرِ، يوم تعودُ الى البحرِ حياً، ويوم تعودُ الى البحر حبّاً، سلاماً على قلبك الزنبقيّ، سلاماً على حزن هذا القتيل.

لك كل شيء

لا حصةٌ ليَ في حياتكَ، أنت تنساني وتمضي، ثم تأخذُكَ القصيدةُ والصديقةُ والقضايا والمرايا والأماسي الشاعريّةُ، ثم ترجعُ حين يُنهكَكَ الحنينُ وحين يُتعبك المزاجُ العاطفيُّ، وحين يُثقلك المسيرْ.

لكِ حصةٌ من كلِّ شيءٍ، من بكائي في الحضورِ وفي الغيابِ وفي اللقاءِ وفي مغادرةِ المقاهي بعد موعدِنا الأخير.

لكِ حصةٌ من ليلِ ليلي، كلما حاولتُ أن أغفو قليلاً كي أنالَ إجازةً من حزنِ وجهك، جاءني في الحلْمِ وجهُكِ متعباً كقصيدةٍ ريفيةٍ أُولَى، كمثل مدينةٍ في آخر البلدِ الصغيرْ.

لكِ حصةٌ من سهلِ قلبي، إنني خبأتُ إسمكِ في سهولِ مواجعي، ونسيتُ أن أنسَى مكانكِ، يا ابنةَ البحر البعيدِ ويا ابنةَ اللغةِ الغرابة، وابنةَ النخلِ المغادرِ خلف ظلّ ظلالهِ بحثاً عن الوطن - الهجيرْ.

لكِ حصةٌ من يوميَ اليوميّ، من عاداتيَ الصُّغرَى، ومن أفكاريَ الكبرَى، ومن كلّ التفاصيلِ الدقيقة، من هوامشيَ الكثيرةِ، من جميع الترّهات، ومن جميع الأولوياتِ الشقيّة؛ حصةٌ مني قليلاً، ربما لكِ في دمي النزِقِ الكثيرْ.

لكِ حصةٌ من شِعْر قلبي، من تسكّعِ باليَ الغجَريّ في برّيّةِ المعنَى البعيدِ وفي سهولِ كلاميَ العذراءِ، في صوَر المجازاتِ الغريبة، في معانيّ البسيطةِ، في اتّزان قصيدتي، أو في اختلالِ مدارجِ الإيقاع في نَصّي القصيرْ.

لكِ كلُّ ماترك المساءُ على يديَّ من الحنين، وما تشهّي الياسمين، وكلُّ ما في هذه النفسِ الغريبةِ من شكوكٍ أو يقينٍ، وارتباكٍ بين أُنثايَ الخفيّةِ والمذكَّرِ في دمائيَ، كلّ ما تركَ العبيرُ

على يديَّ من العبير.

لكِ دهشتي عند اصطداميَ بالقصيدة صدفةً مع سبق إصرار الكلام، وما تبقَّى من حطام معاطفي المائيةِ الكلماتِ تتركُ وقعَها في ما يقولُ الزمهريرْ.

لكِ ما لَكِ، لكِ كلُّ شيءٍ يا صديقةُ، كلُّ شيءٍ، لي أنا جسَدٌ خفيفٌ من غمامِ البحرِ يغفو جانبي فوق السريرْ.

لكِ كلُّ شيءٍ، كلُّ شيءٍ، لي أنا بيتان في أعلى القصيدةِ أستريحُ عليهما، لي ما سأكتبهُ غداً، وأظنّهُ -عبثاً- كلاماً شاعراً، وأظنّهُ المعنَى الأخير.

تعِبَ المؤنّث في دمي

فلْتَخرجي مني مليّاً، إنني أحتاجُ أن أنسَى، لأنّي كلّما حاولتُ تدوين القصيدةِ في غمامِ البال لم أعرفْ بياضاً كافياً للحبرِ والصّور الجديدة، كلُّ ما في البال وجهكِ، فاخرجي من ملحِ هذا البال، وابتعدي كثيراً عن دمي، أو فاخْرجي من كلّ خارطةٍ بجغرافيا خيالي.

أوَكلَّما حاولتُ أن أحكي عن الوردِ البذيءِ على ضفاف الماء، أعياني وجودُكِ، لم أجد شفَتي لأحكي أيَّ شيءٍ، لم أجدْ لغةً سواكِ، ولم أجدْ شفةً سوَى كرزِ الجبالِ مفتِّحاً نهدَيهِ، لا شيءٌ سوَى شفتيكِ من كرزِ الجبالِ.

أوَكلّما حاولتُ إمرأةً لأصحبَها الى الشبقِ البعيد، وكي أُحاولَ أن أُقاسمَها سريراً مخمليّ الصوتِ كُحليَّ التشهّي فاتحاً عينَيه صوبَ البحرِ شبّاكَينِ شبَّاكين، لم أسمعْ سوَى تنهيدِكِ العالي ولم أَشتمّ إلّا ثوبكِ الدانتيلَ، ما مسّدتُ إلا شَعرَكِ المصبوغ من عنبٍ نبيذيِّ الغوايةِ، كلُّ هذا الليل مشغولٌ بصوتكِ، لا يزال البحرُ مرآةً لوجهكِ، فاخرجي من فتحةٍ في الموج، غيبي في المُحالِ.

من أين يبتدئُ الطريقُ الى غيابكِ، أيُّ أرضٍ لا أرى فيها ظلالَكِ، هل هنالكَ شَجْرَةٌ آوي إليها لم تشذِّبها يداكِ، وهل هنالكَ غيمةٌ لم ترسُميها في عيون الله، هل من جدولٍ لم يغتسلْ من رُسغكِ الفضيّ في ليل العذارَى الفاتنات، وهل أرَى من نخلةٍ تَهَبُ الغريبَ، سواكِ، أسماءَ الظلالِ؟

تعِبَ المُسمَّى، تاهت الأسماءُ عن أسمائها، إذ كلُّ شيءٍ في المكان وكلُّ شيءٍ في الزمان أضاع أسماءَ النداء، سوى حروفِكِ، كلُّ شيءٍ صار باسمكِ، فاخرجي من حقل معجميَ الصغير، ومن معلّقتي الأخيرةِ، وادخلي في النثر (إنّ النثرَ أهونُ وطأةً فينا من الوجع المؤنث) غادري نحو الزوالِ.

أنا كلّما حاولت رسمَ أصابعي ألفَيتُني أندسُّ بين أصابع الليمونِ في يدكِ الصغيرةِ، فارحلي، تعبَتْ يدي، وأريدُها، كي أُمسكَ الظلَّ الوحيدَ بغرفتي، وأشدَّهُ نحو الأريكةِ كي يقاسمَني الشرابَ وكي يُعايدَني بميلادي الأخير، أُريدُها -أعني يدِي- كي أُمسكَ القلمَ الأخير لكي أُدوّن ما تبقَّى من نهاياتي الطوالِ.

ها قد سقطتُ مجدداً في فخ وجهكِ، فخ إسمكِ، فخ حسنكِ، إذ أردتُ قصيدةً لا شيءَ فيها عنكِ، لكنّ القصيدة راوغَتْ قلبي وجاءتْ باسمكِ الخزفيّ أزرقَ في خداعٍ واحتيالِ.

كم قد خسرتُ أمام ضعفكِ، كم هُزمتُ أمام صوتكِ، كم نَثرتُ حمائمَ المعنَى أمامكِ كالمغنّي القرطبيّ، وكم رجعتُ إليك مني خاسراً جداً ولا شيءٌ معي إلّاكِ أنتِ، ولا أقولُ سوى بأنْ لا شيءَ في بالي سوَى: أنتِ وبالي.

فلْتَخرجي من باليَ الذكَريّ يا أُنثى تقاسمُني دمي، جسدي النحيلَ، وكلَّ ما عانيتُ من مرض الفصامِ العذبِ ما بين الذكورةِ والأنوثة، هل أنا ذكَرٌ ويسكنهُ الحنينُ إلى الأنوثة، هل أنا أُنثَى يراودُها المذكّرُ عن قصيدتِها الأخيرةِ أم ترى أنا ذلك الذَّكَر المؤنّث؟ ربما الأُنثَى المذكّر، لستُ أدري! إنه تعِبَ المؤنثُ في دمي منّي ومنكِ ومن مشاغبةِ السؤالِ.

أنا سوف أخرجُ من منامِكَ، من خيالكَ، من أناملكَ الطريةِ، سوف أخرجُ من زوايا بالكَ العالي لأدخلَ في الغيابةِ، حينها ستصيرُ محضَ مذكّرٍ، تدري المذكّرُ لا يؤنِّثُ أيَّ شيءٍ [كيف تنقلبُ الطريقُ طريقةً، أو كيف ينقلبُ المسيرُ مسيرةً، أو كيف يبتكرُ السريرُ سريرةً؟] فاحذرْ أحابيلَ المذكّر، فارغاً من شَعرةِ الشِّعر المؤنث، سوف تغدو عندها فرداً كآلاف الرجالِ.

لا تخرجي، فأنا بدونكِ يا صديقةُ هاهنا قمرٌ نحاسيٌ وحيدٌ مطفأ، أو متخمٌ بالعتْمِ يرثي ظلَّه في النَّهر من فوق التلالِ.

آخر ما تبقى في «الطويل» من الحنين

بيني وبينك فكرةٌ، أو قهوةٌ، وقصيدةٌ، والبحرُ والمطرُ الخفيفُ، ومعطفٌ، وغناءُ صيّادينَ في الليلِ الأخيرِ، وبيننا هذا الفضاءُ الرحبُ يجمعُ صوتَنا، أوَليسَ مشترَكاً لكل تنهّداتِ الخَلْق، هذا الأزرقُ الليليّ يجمعُنا، ويجمعنا كلامٌ لم يزل ينمو كأشجار السوادِ على لُغات العابرينْ.

وبيننا ما كان يشكوهُ المُغنّي، صوته الوتريُّ مثل البحر، أغنيةٌ كغابات الصدَى المنسيّ، ما ترك البكاءُ على الأغاني من ملوحتهِ القديمة، ما يثيرُ الذكريات، وما يقول العازفُ الجوّال للغيتارِ من شجنٍ حزينْ.

قالت، لقلبي وهو يُطفئُ ليلَهُ، ومضت وكان الظلُّ يتبعُها، وشيئاً ثم شيئاً كان يخفتُ في الطريق حذاؤها العالي على وجع النخيلِ على رصيف البحر، يحملهُ الصدَى هوْناً، ويتبعُها الكلام المستكينْ.

لا يا صديقةُ لم نكن يوماً شبيهَي غربةٍ أو فكرةٍ، أنتِ ابنةٌ لمناهج العقلاء، سيّدُكِ الكلام المنطقيُّ، وريثةٌ للفيلسوف، أنا رفيقُ الحَدْسِ واللاوعي منطقيَ الأثيرُ بأنْ أُعرِّيَ كلَّ شيءٍ من تعقّلهِ تماماً، لا أُمَنطِقُ أيَّ شيءٍ في الوجود -العقلُ في لغتي حجابٌ- لا وجودَ سوى الجنونِ سوى الجنون، سوى الجنونْ.

لا يا صديقةُ، لم نكن يوماً شريكَي قهوةٍ، أنت ابتكرتِ مرارةَ الفنجان، قهوتكِ الثقيلة مرةً كانت، وفاترةَ التموّجِ، قهوتي صخبٌ وموجٌ واصطدام النهرِ بالبحر الأخير، وحلوة ذوبتُ أقمارَ البلاد سكاكراً فيها، وأرغفةَ المنامات الجميلة، واستدارتْ مثل أقمار التشهّي في منام الجائعينْ.

ولم نكن يوماً على وزْنِ «البسيط» من القصيدة، فاسمعي، ودَعي القصيدةَ للقصيدة، سوف تأتي حين نختتمُ الحكاية، حين نغلقُ باب ذاكرةِ المقاهي والرصيف، وحين ننسَى في

كراسي البحر آخر ما تبقّى في «الطويلِ» من الحنينْ.

والبحر؟ هل كنّا نرى في البحر بحْراً واحداً، هل كان أزرقَ مثلما قالت شفاهُكِ، أم تُرى قد كان مثل عيونيَ الخضراء؟ هل شاهدتِ فيه السطحَ والأمواج والزبَدَ الخفيف؟ أنا رأيت محارةً بيضاء تبكي عند أقدام السفائنِ وهي تحكي عن حروب الفاتحينَ وعن خسارات الجنودِ الخائفين؛ وهل رأيتِ صراخ من غرقوا هناك، وهل سمعتِ عيونهم إذْ يشربون الملحَ والذكرى، ويبكون البلادَ - الياسمينْ؟

مطر خفيفٌ، غيمةٌ نادتْ من الأعلى ومن تحت النخيلِ على الرصيف هنا ببيروت الجميلةِ يا جميلةُ، ههنا، مطر خفيف، واختلفنا، كنتِ تحتَ مظلةٍ صفراء، كنتُ أُعيرُ للأمطار شَعري، وجهَ قلبيَ، طفلَ ماضيّ البعيد إذا تراكضَ في الزّقاق، يداهُ آنيةُ النحاس ويستفيقُ بقلبه كلُّ الغناءِ اللازورديِّ الرنينْ.

لم نشتركْ يوماً هناك على الرصيف بمعطفٍ، فأنا أعرْتُكِ راحتيّ معاطفاً، أنتِ احتميتِ من البرودةِ بالثياب، ومعطفِ الجِلد الثمينْ.

ولربما هذا الفضاء يضمُّنا، ولربما يوماً سنسهرُ وحدنا كلٌّ على حدَةٍ، أنا في شرفتي في الطابق العلويّ من بيتٍ يطلُّ على البيوت، وربما بيت يطلُّ على غروب النهر، أنتِ هناك من أعلى شبابيكِ الأنوثةِ، ربما يوماً سيجمعُنا الهواء، وربما هو نفسُهُ يوماً سيفصلُ بيننا، لكنْ تناسَيْ حينما ضاق العناقُ بنا الى صفْر المسافة (ربما لن تفهمي صفْرَ المسافة فاسألي أسرَى الحروبِ أو الجنودَ العائدينَ بلا وجوه الأصدقاء) دعي الفضاء لنجمةِ العشّاق حين تأمّلوا أحوالها وتبسّموا ومضوا الى أسرارِها مستسلمين ويائسين.

أمّا المغنّي، ربّما سكتَ المغنّي في الطريقِ، وربّما سقط المغنّي في الطريق، ولم يسِلْ من صوته إلّاهُ في الليل الطويل، ولم يسِلْ إلّا بكاءُ الضائعينْ.

وَلْتَرحلي، لا لستِ أوَّلَ سروةٍ خَلَعَتْ ثيابَ جذورها ومَضَتْ إلى الصحراء راكضةً الخطى، وَلْتَرْحَلي، فأنا سُلالة مَنْ تبقّى من ذنوب الراحلينْ.

عشر أصابع للّه

..وتقولُ لي امرأةٌ مراهقةٌ تحبُّ قصائدي في الحبِّ والنسيان والمنفَى: صباحُ الخير، يُعجبني كلامُكَ عن حبيبتكَ البعيدةِ، كم تمنّى قلبيَ الشجريُّ لو كان الكلامُ موجَهاً لعيونيَ الخضراء، لو تحكي قليلاً عن حساسيَتي تجاه التوت والعنّاب، لو تمشي معي في الشارع البحريّ، أو نُمضي سوياً بعضَ هذا الليل كي تستيقظَ النيران في نهديّ أو تعوي الخيولُ.

ويقول طفلٌ وهو يهربُ من يد امرأةٍ تربّي ظلّه وتُعيد ترتيبَ التّبرُّج والطلاء على الأظافر: كن صديقي، واقتربْ حتى نُطيّر من معاطفنا العصافيرَ الصغيرةَ والكلامَ، وكي نحاولَ أن نقلّد ساحراً في السيرْك، نُخرجَ أرنبَينِ ملوَّنَينِ، تعال نُخرج طفلتَينِ جميلتين، ونلعب الحنّاءَ والعرس المبهرَج، ولتُفِقْ من تحت معطفِنا السهولُ.

وتقولُ قابلَتي مددتُ يدِي إليكَ وكنتَ متكئاً على قلبِ العزيزة، لم تمانعْ في الخروج، ولم تكن تبكي، ولم تصرخْ، فقط أمسكتَ إبهامي ورحتَ بكلّ أوراد السكوت تراقبُ البيت الصغيرَ، محدّقاً كمصوّر متمرّسٍ متسلِّلٍ في الحقل كي يحظَى بتصوير الفراشة وهي تخلعُ نفسَها من نفسها، أو مثل بوذيٍّ يراقبُ وجهه في الماء في أعلَى الجبال، وجئتُ أُخبِرُ أمكَ الزرقاء: وجهكَ منبئٌ بغرابة، ويداك مدهشتانِ، لكنّي خشيتُ بأن أبوحَ بأنّ عمرك لا يطولُ.

وتقول أمي إنني أخبرتُها -في ذات يوم من طفولتيَ الغريبةِ-إنني في الحلم شاهدتُ الكواكبَ لم تكن سجدتْ أمامي، لم تكن إلّا حروفاً في كتاب الكون، ثم رأيتُ عشرَ أصابعٍ لله تقلبُ صفحةً وتُجوّدُ الأزهار، كان يرتِّل الأشجار، يقرأ: قل هي الأشجارُ فاتحةَ الحياة، وكان يهمسُ في الرُّبى، فتبسّمتْ أمي خفاءً، ثم قالت بالتماع أزرق في عينها: لا لا تقصّ رؤاك يا طفلي المشاغبَ للصغارِ ولا لوالدك الحبيب، ولا تقل شيئاً أمام الشيخ، إن الشيخَ سوف يُسيءُ فهمَ تفكّر الأطفال فاحذرْ، وانتبه ماذا تقولُ.

والجامعيون الذين تقاسموا قلبي طويلاً أرغموا لغتي بأن تأتي لأمسيةِ القصائد، علّ طالبةً أُحبُّ عيونها تأتي وتسمعُ ما كتبتُ بحسنها، فقرأتُ صبْحاً ما تيسَّر من مواجعيَ العميقةِ ها هناك، ولم يُصدّق ناقدٌ متمرس بالشعر أنَّ قصيدتي لقصيدتي، وبأنني أنا من كتبتُ جنونَها ونخيلَها وحقولها، فأشار أن أتلوْ المزيدَ لكي يصدّق ما أقول، أتتْ تصدقُني القصائدُ والجنون الحرُّ وامتثلتْ لأغنيتي الحقولُ.

وتقولُ سائحةٌ: أحبكَ، في كلامكَ بحرُ (هافانا) الجميل، ورقصةُ التانغو السريعةُ، جوُّ (كوبا) حين تملؤه الرطوبةُ والملوحة والفواكه، فاعتنقْني، كي نطلَّ على حدود الشرفة الزرقاء في المقهَى، ونشربَ نخبَ أغنيةِ اللقاء، ونُمضيَ الليل الأخيرَ بفندقٍ في الأرخبيل، ويعترينا الليلُ والجسدُ المُكوكبُ والذهولُ.

وتقول لي نفسي، تعجّلْ واكتبِ الأيامَ، لا تتركْ لشاردةٍ تمرّ بأن تفوتك، أربعينُ العمر تنتظر انتهاءك، فابتكرْ عمراً من الأشعار، وافتحْ في القصيدة بابها واخرجْ وحيداً غامضاً، إنّ الخروج هو الدخولُ.

تداعيات حرّة لـ «جميل بثينة» بعد الموت

قبري المطرّزُ بالورود، وبالسكوتِ

مازال منتظراً خطاكِ، وأن تموتي

ما زال يبحثُ عن ظلالك في الذين سيقرؤون فواتحاً من بعدها يَنسونَ في صخبِ البيوتِ

مرّي، ففي هذا الثرى شِعرٌ يحاول أن يكون ملوناً من وزنِ توتِ

مري، بنفسجةٌ ستحكي عن غريب الليلِ في هذا المكان، وعشبةٌ خضراء من جسدي ستنشدُ ما تيسّر من تفاهاتِ الخفوتِ

مرّي، سأغفو في المماتِ، لقد تعبتُ من النهوض ومن محاولة الحياةِ

ما زال في نَفَسي قليلٌ تحت هذا العشب فاقتربي،

سينبتُ في البلاد النيلُ

أو ستسيلُ فوق الأرض أحزان الفراتِ

«وحدي وحيدٌ في السواد» ولون ثوبكِ أسْودُ العينينِ،

أخبرتُ العصافير التي ماتتْ على صدر السياجِ وجاء يحملُها الخريفُ إلى يديَّ بأنني أخشى السواد، فلا يصدِّقْ قلبُك المفتوحُ من قالوا: «يليقُ بك السواد» بُعَيدَ ما قرؤوا الروايةَ - وهي حُبلى بالغثاء وبالرماديّ الحياديّ البذيء وبالفتاتِ.

مُرّي ملوّنةً كما طعناتِ «روميو» في ثقوب فؤاده، كم كان مجنوناً وُصوليّاً، ويهزأ بالمَشاهد في خواطر ساذجٍ يُدعى «شكسْبيرَ» الغبيَّ، وكان يسخر بالرواةِ

مُري بثوبِ تنهّد الغابات خضراءَ الجنون، كثلج كانونَ البعيد، كَزُرقَةِ البحر التي في صوْرَ، مِن لونٍ جديد لم يحاولْ فهْمَهُ كل الغواةِ

ما زِلْتُ مُنتظِراً خيالَكِ أنْ يمرّ على رفاتي.

ما زلت منتظراً كلامَكِ أنْ يقول: أحبُّ قولَكَ: أنتِ مَوتي

مُرِّي لكي لا نستفيقَ اليومَ من هذا السباتِ.

مرآة لوجه عمر بن أبي ربيعة

- أتحبُّهنّ جميعنّ؟

- أحبُّ واحدةً، وأبحثُ عن ملامحِها بهنّ كمنْ يحاولُ أن يرى عنّابةَ التشبيه في جسدِ القصيدة.

- أنتَ تختلقُ الإجابةَ، كي تفرَّ من السؤالِ

- أنا أُحِبُّ وحيدةً في كلّهنّ، انا أجرّبُ -مثل عطّارٍ أُصيبَ بلوثةٍ في الخيمياء- بأن أقطّر [مثل مجنونِ الرواية: قاتلٌ متشرِّبٌ بالعطر] من كل النّساء كثافةَ الأنثى وإمرأةَ الخيال الحرّ، أوّلَ مطلعٍ في النثر، آخرَ دهشةٍ في الشِّعر، إمرأةَ الشمال المستفيقِ على مرافئهِ، وإمرأةَ الجنوب يقدّسُ الجسدَ-الخطيئة والملوحةَ والتماعَ البحرِ في آبَ الأخيرْ.

وأحبُّ في (نارا) التماعَة عينها والقهوة البنّيّة التنزيل، يُدهشني شعورُ الأُمّ في دمها المسافرِ في دمي مثل السنونو في الشتاء، تخضُّني حتى نخاع القلبِ مسحتُها الصغيرةُ فوق شَعري، ثم يُدهشني احتمالُ الشاعر المجنون في جسدي، احتمالُ مزاجيَ «العاصي» تَقلُّبُ ألفِ فصلٍ من فصول الشِّعر يومياً على طقسي، حوارُ تعنُّتِ الصّبّار في رأسي العنيد بلا مبالاةٍ تُثير زوابعَ الدنيا على شفتي، تثيرْ.

وأحبُّ شاعرةَ التمرّد والتردّد، وهي تنأى ثم تقربُ، ثم تنأى، ثم تبتكرُ استعاراتِ المياه، وتنتشي أني رجعتُ -وكنتُ أُقسمُ كلَّ يوم أنني أمحو ملامحَها الصغيرةَ- ثم ترسم صوتَها في صفحتي البيضاء، ثم تغيبُ، كي تأتي، وتجمعَنا مصادفة الوظيفةِ في احتفالٍ باهتٍ عن حسن تدبير الوزير وسعيه المحموم كي يحميْ القصيدةَ أن تُصابَ بدهشةٍ أو رعشةٍ أو صورةٍ شعريّةٍ، ويصيبنا ملٌ وظيفيٌّ طفيفٌ، ثم نهربُ ضائعَينِ على رصيف البحر، نأوي صوب مطعمنا المفضّل في البلاد: أنا طلبتُ قصيدةً مع وردتينِ بصوتها المبحوح من أثر

الغناء ومن حساسيَة الشّتاء، أنا استزدتُ بضحكةٍ سمراءَ من خدٍّ جريحٍ بالطّفولة والسّياج. هيَ اكتفَتْ من نظرةٍ خجلَى وكوبٍ ساخنٍ من شايِها، وأنا أُحاوِل أنْ أُخبِّي البَحر في يدها كَسِكّيرٍ كَسيرْ.

مطرٌ غزيرٌ حولنا، مطر – حريرْ.

وأحبُّ إمرأة التّسكُّع في الخريف وفي أقاصي الليِل في المدن الغريبةِ والوحيدة حين تنطفئ المقاهي، حين يأوي العاشقون الى الأسِرّة، حين ترتبك المفاصلُ، حين تشتبك الأناملُ، أو يدقّ على دمي الورديّ بِنْدَولُ الحنين، فلا يُراودني سواها، كي نسيرَ على الهواء وكي نموتَ وكي نطيرْ.

وأحبُّ عاشقةَ الرواية، والمراهِقةَ، المزيجَ من الغمامةِ والعصافيرِ الصغيرةِ، والمزاجَ المستفِزَّ المُستَفَزَّ كفكرةٍ مخمورةٍ مولودةٍ من بعد «ميعاد» العبير.

واحبُّ إمرأةً إذا مسَّدْتُ إصبعها تُثارُ وتنتشي، وتُصابُ بالخجل الحميم كقريةٍ في بال «مختار القرى» إذ مسّ شامتَها الصباحُ وسال في الوديان صمغُ السرو والعنبُ الشقيُّ، وماجَ بالنحل القفيرْ.

-أتحبهنّ،؟ جميعهنّ؟

-أحبهنّ جميعهنّ لأنهنّ المفرداتُ الشُّقرُ في البيت الأخيرْ.

شغبٌ شتائيٌ حارّ

أنثى تُعدِّل في مِزاج قصيدتي، وتُعِدُّ لي لَونَ الشَّراب وتَعصِر المَعنى سُكوتاً أو كلاما

وأنا أُعِدّ لِصوتها الخَمريّ مُتّكَأً لِتَجلسَ في الرِّوايةِ، أو تَنَاما.

والثلجُ يرقص حَول غُرفتنا كدُوريٍّ يُغازِل بالهَديل المُستعار حَمامةّ شَغَلَتْ بِضِحْكَتِها اليَمامَا.

اللَّيل يَقطُرُ شَهوةً. ويُسَرِّحُ العطر الأُنوثيَّ الشَّقيَّ، اللَّيلُ يَفْتَتِحُ الخِتامَا.

يدُ ليلَكٍ رسَمَتْ على الجُدران نَهدَتَها، ونَرجِسةٌ على موج السَّرير تحاوِلُ الآن الخُزامى.

البيتُ يَجهش بِالبُكاء وبِالوُرود، ويَستعير هواءُ غرفتِنا مواويلَ الخرافة والبَخور السِّنْدِيانِيَّ الثَّقيل مُعَتَّقاً عاماً فَعامَا.

النَّار تَلهثُ في العُروق، النَّار تُشْعِلُنا حُطاما.

لا نايَ في هذا الهدوءِ سوى نشيدِ الحُبِّ في دَمِنا الشَّقيّ، ولا كمانَ سوى مرورِ رياحِ (أنكيدو) على شَجَرِ الصَّنوبر، (لسْتُ أدري كيف يَغدو الصَّوت رائحةَ الصَّنوبَر في الشِّتا) لا سَكْسُفُونَ سِوى مُرور الماء في جَسَدِ المَنازِل تَشتهي أنْ تَّحضنَ الآنَ الغَماما.

ضاق الزمانُ بنا، بنا اتَّسع المكانُ فكيف يَجتمع النَّقيضُ مع النَّقيض وكيف تَبْتَكِرُ الشَّياطينُ الَّتي فينا نَبيّاً أو إماما.

لا، لا مكانَ هنا، سوى هذي الأريكةِ في مُقابل لَهْفَة النَّار الشَّهيةِ عند زاويةِ الغوايةِ، لا مكانَ سوى السَّرير الأبيض الخَمريّ، قالوا كُلَّما اتّسعت رؤاكَ تَضيق رائِيَةُ المعاني، رُبَّما قالوا صواباً

لو أضافوا: «كُلَّما ضاقَ المَكانُ على الأحِبَّة سوف يتّسِعُ المَكانُ، وسَوف تَشْسَعُ أنْهُرٌ حَدَّ البِحارِ، لِيَبْلُغَ الجَسَدانِ ما يَتجاوَز الدُّنيا غِناءً أو مَقاما».

لا، لا زمانَ هنا سوى دهرٍ من الشَّجن البعيد، وذكريات: والَتَقْينا قَبل ميلادِ المَسيحِ بآدَمَيْنِ، وقبل زيْجاتِ الورودِ، وقبل مَوعدِ نَخلتينِ على مَمَرِّ الماءِ لو يُفضي إلى حُزنِ العراقِ، وقَبل أوَّل أُغنياتِ الفُرْسِ حَول النَّار،

قَبل غِوايتين لِأحمرِ التُّفاح، لا بَلْ قَبْلَ أوَّل قُبلةٍ في بال (مينرْفا) بلى، أو قبْل أوَّل مقطَع في سَجْع كُهّانِ القصيدةِ، قبل أغنية الرُّعاة هُناك في سهلٍ بعيدٍ في السماءِ، وقبل أوّل مَطلَع في بال (لوركا) لو رأى إسبانيا في رقصَةِ الدَانتِيْلِ وَفْلامينْغُو غيتارِ الغريبِ، مُحاوِراً عُوداً أخيراً في يَدَيْ زِرْيابَ، لا زمنٌ سِوانا؛ كُلَّما امْتَدَّ الزَّمانُ بِعاشِقَينِ تَكَوَّرا، قَصُر الزمانُ على تَنَهُّدِنا فَنَاما.

نشوى تغمِّض نجمتَينِ، وتُسْبِلُ السَّعف الكثيف عليهما، وتَزُمُّ عنّاب السَّواحل، ثم تُرخي نَهدةً زرقاءَ كَي تغفوْ قليلاً فوق صَدري، كي أَفُكَّ عُرَى القميص اللَّيلكيِّ على بَياض سُفوحِها، قَلبي يَمُرُّ على خرائِط جِسمها كأناملٍ فوق البيانو، أو على خَصْرِ الكَمَنْجَةِ، أو كَفُرْشاةِ بيكاسُو في بياض اللّوحة الجَدَلِيَّة الأُولى، كَقَلْبٍ لَمْ يَجِدْ إلّا السِّهاما.

أَللّيل طالَ ولم يَجِئ صُبحٌ، ولم تُنهِ الحكايةَ شهرزادُ ولم يَصِحْ ديكُ الصباح، ولم تُفقْ شمسُ الضُّحَى من نومها، كَتِفِي وِسادةُ رأسها، ويَدِي تُغَطّيها، وآخرُ دمعةٍ في الجفْن أَحْبِسُها إلى حين الصَّباح، أَصُبُّها في كُوبها شاياً، وفي فنجانِها العالي مُداما.

مازال هذا اللّيل يُنجِبُ نجمةً، وقصيدةً، وصنوبراً أعلى من الشُّبَّاكِ، أكثرَ من تَنَهُّدِنا، ويَنْشُر في الأريكَة عَتمةً خَمريّة الكلمات، يُمْلي في يَديَّ نبوءةً من سُحنة القمَر البَعيد، يَدُسُّ في دَميَ الكُحولَ، يرشُّ في قلبي عناقيداً قدامى.

ضحِكتْ كَمَكْتبةٍ من الأشعار، هل تَدْرونَ كيف الشعرُ لو صار ابْتساما؟

وَرَنَتْ إليّ بِنظرَتينِ وقُبْلتَينِ، وَوَدَّعَتني: إنّ لي عمَلاً أقوم بِهِ صباحاً يا فتى الكلماتِ، فابتسمَ البنفسجُ في دمي، ومضى يُهرولِ خَلفها سرْباً من الكَلمات، أُغنيةً مِنَ الطَّيرِ السنونو، غابةً عذراءَ من حَومِ الفراشِ، أنا مضيْتُ وراءَ عِطر ثِيابها وكأنَّني البَطلُ الوحيدُ لِقِصَّةِ (العِطْرِ) المُخيفة، أو كأنَّ ثِيابها العطرُ الأخيرُ، أنا عَدَوْتُ وراءَها طِفلاً يُهرولِ خَلف طائرةٍ مُلَوَّنَةٍ مِنَ الوَرَقِ الشَّفيف، أنا ركضْتُ وراءَها في الشَّارع الشَّتويِّ تحْتَ الشَّمس، كي أَلِدَ القَصيدةَ، ثم أُلقيْ فَوقَ حُزْنِ الأَرْضِ مِنْ كَفِّي سلاما.

لصُّ الحدائق/ نصُّ الحرائق

(مذكرات رجل يحب إمرأة تحبّ رجلاً آخر)

تُحبّينَ شخصًا غَريبًا بعيدًا، ولا تَعرفين ملامحَ وَجْههِ لا تعرفين الخطوطَ التعاريجَ في راحَتَيْهِ، ولا تعرفينَ امتداد أصابعهِ في الحَريقْ.

ولكنْ عَرفتِ أدقَّ التَّفاصيل في بَيت وجهي، نُدوبَ الطّفولة فوق جبيني، وعيْنَيّ: ما فيهما من بريق الصنوبر، ما فيهما من شُجون النّخيلِ، وما فيهما من رماد الخريف [ويومَ الخريفُ استثارَ الدُّموع على وجنتيّ، رأيتُكَ كيفَ ارتجفْتِ أمام دموعي، وخِفتِ، كَفَفْتِ أصابعَكِ المشتهاةَ من الذّكريات ومِن مَسْحِ دمعي] عَرفتِ الدُّروب التي في يدَيَّ إلى الحظّ والحُبِّ، بلْ تعرفين الكلامَ الكثير الذي في الأصابع، ما قدْ كتبْتُ، وما قدْ حجبْتُ عن القارئينَ لأجْلِ عُيونكِ هذي الصغيرةِ مثل الفناجينِ في بال قلبي، وتدرينَ صوتي وما يختفي خلف هذا السّكوتِ، وما يَختبي في غُموض الكناية والتَّوريات، وما يتوارى وراءَ النّشيد، وكم تَعْرفيني، وكمْ تَهربينَ لكي تُسكِتي البحرَ فيك، وكي تُسمعي الحُبَّ فيك ادّعاءً سخيفاً بأنّي الملاذُ الـ (بلا أيِّ وصْفٍ) وأنّي القريبُ وأنّي الصَّديق.

فهَلْ سِرتِ يومًا على مُخمَلٍ أحمرِ اللَّونِ في بالِ قلبِ الغَريبِ كما سِرتِ يوماً على مُخْمَلِ البالِ -بالي- أَقاسَمْتِ غَيري احتساءَ المساء على شُرفة البحر، هلْ يَشهد النَّخلُ، أعمدةُ الضَّوء، ذاك الرصيفُ، على نُزهة في مَمَرِّ المُشاة على مشهد البحر عند المنارَة مَعْ ظلِّ ذاك الغريب البعيدِ أمِ البحرُ يَشهد أنّي وإيّاكِ سِرنا طويلاً إلى أنْ تنَبَّهَ حارسُ قلْبِ اللَّيالي إليْنا فأنّبَنَا لِلكلام القليل بغَير عناقٍ وغير اشتباكِ الأصابعِ في الدَّرب؟ أمْ هلْ سَهرتِ إلى أنْ تثاءبَ ليلٌ لبيروتَ ذاتَ شتاءٍ سوى معْ يَديّ، وهلْ قال غيري بأني القتيْلُ وأنّي السّبيل وأني النخيلُ، وأني الغريقْ؟

أأهداكِ غيري ورداً؟ أنا صرتُ لصَّ الحدائق، أعبُر أسوارها في الصباح اختلاساً وأختارُ في كل يومٍ من الورد واحدةً ليديكِ، وصرتُ الخبيرَ برائِحَة الورْد أعرفُ كُلَّ الروائح لوناً ولوناً، وهمساً وهمساً، وأنثى فأنثى، قتيلاً قتيلاً، فيوماً يُعطّرني الياسمينُ، ويوماً تُثيرُ دمائي الزَّنابقُ، يوماً يفيضُ عليَّ الحياءُ من اللَّيلَكِ الليلَكيّ، ويوماً يُلوِّنُ قلبي الشَّقيقْ.

وهلْ تحكيانِ؟ متى تحكيانِ؟ وأنتِ موزَّعة بين قلبي وقلبي، وبين الحُنُوِّ الذي في عيونك لِلمُتعَبِين وبين رسائل صوتيَ حتى ابتداء المساء، وحين تعودين من مَسْح رأسِ المَريضِين تأتيْن نَحوي، وأخطفُ وقْتَك حتّى يُغالبَكِ النَّومُ والحُلم، تَغفينَ ثانية فوق قلبي فأمسَح رأسكِ، أَحرُس عينَيْكِ مِنْ أيِّ نَجْمٍ غريبٍ يُحاولُ شِبْهَ عُبورٍ إلى ليل حُلمك. هلْ قال غَيري «أحبُّكِ» أو قال غَيري «أُ حِ بُّ كِ» موصولةً مثل نهْرٍ صغيرٍ، مُقطَّعَةً مثل سرْبٍ أخيرٍ يَهمّ إلى الدفء، أو مثل صوتي المُقَطَّع ممّا بهِ من حنينٍ قديمٍ، وهل قالَ غيري «أُحِبُّكِ» مَشحونةً بالغوى والرّحيقْ؟

أنا أُدركُ الآن أني أُحاولُ ما لا يُحاول، أعرف أنَّ انتهازيّتي لا تُحدّ، وأنيَ عصفورُ دوريْ يُغازل عصفورةً في إسار الغَريب، وتخشى الهروبَ من الشُّرفات ومن قفصِ الوهم فيها، وأنّي أُريد اصطحابَكِ نحوَ المجاهيل، لا أفْقَ، لا من ختام لهذي الحكاية إلَّا المَتيه، ولا بيتَ إلَّا القَصائِد والذِّكرياتُ، ولكنَّه الحُبُّ يُعلن أنَّ النهاياتِ أحلى إذا لمْ تُحدَّدْ وإنْ لمْ تُخَطَّطْ [نبيُّ الذين يموتون في كلِّ يومٍ من العشق عشقاً على كل دربٍ ومفْرقِ قلبٍ، وكلِّ الذين قضوا في سبيل الحبيب لقدْ أَوْدَعوني الوصايا الأخيرةَ]:

«الحب ليس الوصول بتاتاً، وليسَ اللّقاء تماماً، ولكنَّهُ يا صديقي الطَّريقْ».

هُوَ الحُبُّ محْضُ الطَّريقِ إلى الحُبِّ، فادْخُلْ كَزَنْبَقَةٍ في الحَريقْ.

سلاماً على وزن خصرك

خلال الطريقِ من البيتِ نحو القصيدة فاجأْتَني أيها الحُب [يا قاطعاً للطريق] وكنتَ تسيرُ ورائي، وتُخفي وراء الشُّجيراتِ ظلكَ، بسْماتِكَ الساخرات، تعدُّ خُطاي قُبيل سقوطي، أنا قد وقعتُ بفخ لذيذٍ من التسميات لمن سبقتْني إلى الشمسِ والدربِ نحو القصيدة، قلتُ لقلبي يحيّرُكَ الحُب ماذا تسمي الغزالةَ هذي التي تستبيحُ دِماك، وهذي التي تستريحُ على شرفة النص -نصّكَ- ماذا تقولُ لتلك التي تتمشَّى على زغَبٍ ناعمٍ في الصباح:

حبيبة قلبي، صديقة روحي، وطفلة شعري، وأنثى إشتهائي، وإمرأة الشبق المستحيلِ، ونجمة ليل الصحارى إذا ضيّع العابرُ القرطبيّ الطريقَ إلى قلبه في الشآم البعيدةِ أو خانهُ في الطريق الدليلْ.

وموجةَ كُلِّ البحار الأخيرة وهْي تُصاب بحُبِّ الشواطئ، لا شاطئٌ في الرّحيل إليك، ولا شاطئٌ غير وجهِكِ وهْوَ يُضيءُ كما كوكب الحظّ حين يُلوّحُ من خلف حزن الصَّنوبر أقصَى ليالي الشتا الهِرمِليّ، كسيّاب شِعرٍ إذا مرّ ليلاً ببال النخيلْ.

متى تَعبُرين من الضّفة المَشرقيَّة عند الجنونِ إلى ضفَّةٍ في الشَّمال القصِيّ، إلى ضفةٍ في أعالي البقاع، إلى هوّة النهر في قاع روحي، متى ترقصين على الصَّدَفِ المخمليّ المخبّأ في آخر الروح، كيف أُصبّر هذا العُطاش القديم إليك، وأيّ التعاويذ تنفعُ، أيّ الرُّقى قد تفيدُ المولّهَ في الحبِّ، أيُّ القراءات في كُتُبِ السَّاحرين القُدامى تُخَفِّفُ من مرض العشق فيَّ، وأيّ المسارح أرتادُ حتى أُلوِّنَ وَجْهَ المُهرِّج ألوانَ يوم انتظاري يديْكِ، متى تعبرين إليّ، أنا كلّما مَرَّ ظلّي بأطفال هذي البلاد مَضوا خلف ظلِّي لِيرموه بعض الحصَى والكلام وقالوا: نبيٌّ لقد مَسَّهُ الجنُّ، قالوا: غويٌّ يُجَنّنُهُ الشِّعر، قالوا: شقيٌّ يُعذِّبهُ العشق [قد جاء في أُخرياتِ الهوامش أنّ:

«يعذّبُه» ليس تعني «العذاب» ولكنّها قد تشيرُ إلى فعل هذي «العذوبة» حين تفيض على الذّكَر الهاجِريّ لتمنحَهُ الماء والظِّل واللِّين في الروح] قالوا: نَبيٌّ غَويٌّ شقيٌّ ضَليلْ.

وتَمضين عنّي، إلى حصَّة الدَّرس، ماذا سيفعل طُلَّابك العاشقون إذا ما دخلْتِ عليهم كموّال حزنٍ يَمرّعلى صمت ليلِ البِقاع الطَّويل، كمِثْل الكلام البسيط يَمُرُّ بِنصٍّ كَثيف الكِناية، مِثل الغمامة في أوَّل الصَّيف، مثل الأغاني التُّراثيَّةِ اللَّحن في العُرس، مثل الكتابات فوْق المآذن كوفيَّة الخطِّ، أو مثل لوْن الهوَى والهَديلْ.

أغارُ عليكِ كثيراً من الشَّجر المزهر الليلكيّ على تختِ جسمكِ، من زهرتَينِ بطعم الإجاص تُسيلانِ ريقَ البساتين سرّاً، وزهرة درّاقةٍ مثل نهدٍ شقيٍّ، أغارُ من الفَيءِ حين يَنام على جسمكِ الغرِّ، هل تعرفين بأني أغارُ عليك كثيراً وأسأل نفسي لماذا جلبْتُ لكَرْمي الثعالبَ حين زرعْتُ ببيتِك طفلَينِ مثلك؟ هل تعرفين بأنّي أغار من القطة البربريَّة حين تَغُلّ بصدرِكِ؟ هل تعرفينَ بأنّي أغار عليكِ من الماء لمّا تخوضين في البَحر كالزُّرقة المُشتهاةِ؟ وحين تّرُجّيْنَ نَهراً عَصِيّاً بقلبي على كُلِّ أنثى فيَمشي إليكِ بِعكس الخرائط؟ هلْ تعلمينَ بأنّي الشَّهيد الأخير أمامكِ؟ أنّي الشَّريد وأنّي الطَّريد، وأنّي الفقيد، وأنّي القتيلْ؟

سلاماً على وزن خصْرك عندَ المَساء، وكُلُّ الصَّلاة على جسمك الغِرّ فوق السَّرير، وفوق الحرير، على اسْمِكِ نبدأُ هذا النّهار الشَّهي البَّهي، ونفتَحُ بابَ الكلام الجَميلْ.

سلاماً على العاشِقين الحَيارى يَموتون في اللَّيل نَجماً فَنَجماً، ويَبقون في مُصحَف المُستحيلْ.

مُتْ في يديّ لكي أحبّك

[ليس آدم إلا مسوّدة النص، حوّاء وحدها القصيدةُ التامّة]

(السيد كاف)

قد كان ثمةَ شاعرٌ، ويحاولُ النَّصَّ الذي سيغيّر التكوين والتقويم، أخطأ، قام يمحو، ثم يُثبِتُ، ثم يمحو، ثم يُثبت، ثم ينسخُ، كان في النصّ-المسوّدةِ الكثيرُ من العيوب:

تكسّرٌ في الوزن يخدشُ هدأةَ الإيقاع في ليل السهارَى الحالمين، خشونةٌ في معجم الكلمات [من مثل «الذكورة»، و«الرجولة» و«التعقل»] حشوُ ألفاظٍ، ورصفٌ منطقيٌّ للكلامِ، وكثرةٌ في الربط ما بين الكلام وما يدلُّ، وربما حَرفيةٌ بدلالة المبنَى عن المعنى المراد فلا مجاز، وكلُّ شيءٍ واضحٌ كدعاء كلِّ الأنبياء، منظّمٌ لكأنْ كلام الفيلسوف، مفصّلٌ كالسردِ في نصٍّ روائيٍّ طويل.

ورأى، غريباً ما رأى عند المنام، وقام يُصلِحُ نصّه:

وزنٌ على وزن الظلال إذا يخففها الخريفُ، ومفردات من غمام [كالأنوثة والخصوبة والرطوبة والغواية، واستدارة نهدها قمراً على وجع التلال، الشّعر، مكسورَ البداية ثم مفتوحاً على أفق الغرابة، جيدها] وعلاقةٌ شعرية بين الدلالة والرموز، وهوّةٌ في الاستعارة [كلما اتسعَ المدَى ما بين قطبَيها تولّدَ ما يثير فضولَ قارئها الجديد، لربما يَتعتّم المعنَى قليلاً كي يجوز الى الوضوح كنجمةٍ قد أطفأت ما حولها لتضيءَ من خلف السواد] فكلّ شيءٍ غامض، ومؤَوَّل: شجرٌ كثيفٌ، غابةٌ مثل الكناية والتشابيه الغريبة (سرّةٌ كالسرّ، وجهٌ كالبحيرة في الشتا، نهدٌ ككوبٍ من ثغاء غزالةٍ، عطر إباحيّ خفيف من شهيق صنوبر الغابات في الجبل البعيد) وقُبلةٌ مثل العلاقة بين دالية وخابية وخمّار شقيٍّ، كل هذا الغامض

السريّ في النص المبسّط والكثيف «كأنّ حلْماً عابراً» وكأنّ معنًى خاطفاً، وكأنّ ليلاً مترعاً بالأغنيات وبالهديل.

أنهى قصيدته «النساءَ» ووزّع الأقلام أشجاراً على الغابات، والكلماتِ عشباً أخضرَ العينين في لغة السهول، ورشَّ هذا الحبرَ ليلاً أو سماءً واستراحَ من الكتابة ثم نام، وقيل مجنوناً مشَى في الدرب من فرط الغوايةِ بالكتابةِ والقصيدة والأنوثة، والكلام المستحيل.

وقيلَ منتحراً بريشةِ طائرٍ وجدوه في ماء البُحيرة بعدما قالت لهُ: متْ في يَدَيّ لكي أُحبكَ، قيل مات من العذوبةِ، قيل ذاب كسُكّرٍ في ماء لون الورد من فرط الدلال، وقيل قد وجدوا رسالته الأخيرة قرب مصرعه البطولي الأخير: وكنتُ ربّاً طاعناً بالوحدة الكبرَى وبالجبروت، بالسأم الكبير وبالفراغ، كتبتُ في الأبدية البيضاء: «إمرأةٌ» أنا من يومها قد صرتُ مزدحماً بها وغدوتُ في يدها القتيلْ

هذا دمي الورديّ مسفوحاً على يدها دليلْ

وقيل حاشيةٌ على متن الرسالة:

[آدمٌ مُسْودّةُ النّص البدائيّ الضعيف قُبيل أنْ يُجريْ إلهٌ شاعرٌ تعديلَهُ في النّص، تعديلاً طفيفاً في الكلام وفي البياض وفي الفراغ وفي الكتابة، كي يجيءَ النصُّ مكتملاً وأنثى، صار يُسْميها القصيدةَ ثم أقسم:

إنها الأنثى اكتمالُ النّصّ، والشِّعرُ الأخير على تخوم الله والليلِ الغويّ، وإنها الأنثى هي النّصّ المواربُ والبديل، فقل هي الأنثى الكلامُ المستحيلْ].

هذي الغمامة تحت ابطك وردة أم ياسمينْ؟

يا حب، يقطعُني الحنينْ.

نصفَين، نصفي ضائعٌ بين البراري والبلاد، ونصف ما يبقى كلامُكِ عند تَخْتِ البحر يا بنتَ السنينْ.

إنّي أحبُّك، هكذا قالت خلايا الماء في جسدي الغريب، وهكذا قالت يدايَ غداةَ سِرْنا في الطريق إلى السرير، وهكذا قالت عيوني، كان لي عينان من نخلٍ قُبيلك [إنّ هذا النخلَ مفطومٌ على حزنِ العراقِ السومريّ] وكان لي لغةٌ من الدم والأنينْ.

ورأيتُ وجهكِ في القصيدةِ صار لي عينان من عسل وتينْ.

ورأيتُ وجهكِ في المنام ولم أكن من قبلُ أعرف أنَّ في الأُنثى بحيراتٍ تنامُ على المساء، ولم أكُنْ أدري بأن السَّهل يمشي في المسافة بين نهدَيها وآخر نجمة في سُرَّةِ الأسرار، لا، ما كنتُ أعلم أنّ للتفاح طعماً آخراً إلّا على صدرٍ شهيّ كالمرايا، من تكونينَ: الصغيرةَ، والأميرةَ، والقصيدةَ، والبعيدةَ، والصديقةَ والحديقةَ، والحريقةَ والطريقةَ، والطريقَ، ولثغةَ الراء الخفيفةَ في تخوم الحامض النوويّ في لغتي، وأجراسَ الرنين؟

من أين جئتِ إلى بلادي الخالياتِ من الصنوبر بالصنوبر؟ كيف جئتِ إلى دمائي الباردات لتُشعلي حطبَ الكلام؟ وما فعلتِ بحكمة الحكماء فيَّ؟ وكيف أدخلتِ الجنون إلى وقاري؟ كنتُ قبلكِ إرْثَ ما ترك النُّحاةُ، وإرث ما ترك الرّواة، وإرث ما كتبَ الحكيم الفيلسوفُ من الكلام، وجئتِ، وانسرب الجنونُ إلى دمائي، انسلّ طفلٌ أخضرُ العينين يهربُ كلَّ يوم في الصباح من الدروس إلى البراري تحت إبطك، كان طفلاً أخضرَ العينين، كانوا يطلقون عليهِ إسماً: أوّل الشيطان، أوّل عشبةٍ قبل الملاحم في بلاد الرافدين، أوِ انزلاق الراءِ في حبر

الأنوثة، كيف جئتِ الى دمائي، وابتدأتِ، أوِ ابتدأتُ؟ أنا ابتدأتُ على يديكِ بذات شِعر، يا ابنةَ الشجر الأخير هناك في نهد الجنون، ويا ابنة الشجنِ البقاعيّ الحزينْ.

هذي القصيدة تحت إبطك، وردةٌ أم ياسمين؟

من أين تبتدئ الأنوثة؟ تحت إبطيك الأنوثةُ برعمَتْ أفكارها، وتأوّهتْ ممّا يفيض من الحليب، من الزبيب، وما يسيلُ من الخلايا، إنّها سمّتكِ ما سمّتكِ، حقاً، كيف أسمتكِ الأنوثةَ يا صديقةُ؟ ربما سرقَتْ من الخوخ الشهيّ بدايةَ التلويح، من نهدٍ شقيّ دالهٍ ودليله نحو التشهّي، من شجون الناي آخرَ شهقةٍ قبل الوداع [وداعِه نهراً صغيراً في نهايات الحكاية] من جُنينتكِ الصغيرة أوَّلَ الفل- البياض، وربما ختمتْ حروفَكِ باستدارة هذه الدنيا، وهاءٍ كالسفرجل، أو بداليةٍ وتين.

هذي الغمامة تحت إبطك غابةٌ أم ياسمين؟

يا بنتَ قلبيَ إنّ في جسدي كلاماً لا يُقال سوَى على جسدٍ بعيدٍ في ختام البحر والتَّخْتِ الشّقي، وشرفة تُدْلي إلى الأمواج من زبَدِ الغرابة ما يثير، وإنّ في لغَتي كثيراً أو كثيراً من شعورٍ غامضٍ يدعونه حُبّاً، وأدعوه الحنينْ.

تعب الكلامُ من الحنين.

تعب الكلامُ وربما تعب الحنينُ، فكوّريني تحت إبطَيْكِ كلاماً أو ورودًا أو سماءً او هوًى أو فكرةً، أو ياسمينْ.

مِن امراةٍ لا تُبالي

لماذا ولدتَ؟ ومن قبل عشرين عاماً -وأكثر- من شامة التوت في كتفيّ، لماذا فتحتَ البداية قبل مجيئي؟ وكيف استطعت الدخول إلى هذه الأرض قبلي؟ أمَا أخبرَتْكَ البراري الوسيعةُ أني سآتي، وأني أحبك؟ قل لي بربكَ كيف كبرتَ؟ وكيف تضيء شموعك للأربعين ولم أبلغِ الآن عشرين عاماً؟ فكيف الطريق إليك حبيبي، وكيف السبيلْ؟

أُحبكَ في الأربعين كثيراً -وعمري أنا الآن عشرون عاماً وزنبقتان-

قليل من الشّيب في غرّة الرأس، في الذقن، في طرف الشَّعر، والشيبُ هيبتك المستفزّة، يمنحك الشيب ما يُسقط القلب في الفخِّ، ما يوقع امرأةً مثل حالي [أنا امرأة لا تبالي ولم تعترفْ قبلُ بالحُبِّ، لم تكترث للفتى الجامعيِّ الوسيم الذي تركض الأخريات إليه] قليلٌ من الشيب يُسقط هذي الفتاة العنيدة في الحُبِّ، يُشعلُ فيها كثيراً من الحزن والليل، والشَّبق المخمليّ، وما يفعل الزنجبيلْ.

أحبُّ الخطوط الصّغيرة حول عيونك، عيناك نخلٌ على نهر حزن العراق القديم، وعيناك شهوة هذا الصنوبر في سفح هذي الجبال المطيرة حول البقاع المعذّب بالحبِّ والمتعبين، وعيناك سرُّ المسير الطويل لجلجامشِ الحزن وهْوَ يُسافر بين النخيل وبين الصنوبر، عيناك دين وكفر، جنونٌ وعقلٌ، ومَكْر وحُبٌّ، وإنّي أُحبُّ الخطوط الصغيرة، هذي التجاعيد أوضح في فهم ما لا تقول، وفي فهم ما قد يجول بشِعرك، أوضح في سرد أوضاعك العاطفية، أعشق هذا الكلام المراوغ حين تقول بعينيك دون كلامٍ، وأعشق هذا الشرود الطويلْ.

سأُفشي لك الآن سرّاً جديداً: أُحبُّ يديكَ، الخطوطَ التي فيهما كالطريق الغريب إلى البحر أو مُدُنٍ للكتابة، هذي الأناقة بين أصابع كفّيك حين تدخّن أو حين تَكتُبُ، لا أعرف الآن كيف أُفسِّر هذا التشابهَ بين السجائر والقلمِ الحبرِ بين أصابعك المشتهاة، ترى هو ذاك

التلازمُ بين طقوس القصيد وبين احتراق السّجائر في آخر الليل؟ لا أعرفُ الآن ماذ أريدُ وماذا أقولُ، أُحبُّ يديكَ، أذوب كثيراً على جمر هذا الغوَى المستحيلْ.

أُحبّ مزاجك، هذا التقلّب بين النقيضيين: نضجٌ غريبٌ وحكمةُ عَرّافةٍ في قديم الزمان، وطيشٌ عجيب، كأنّ انفصامًا، كأنك أنت اصطدامُ النيازك بالماء، ذئبٌ يَعُبُّ البراري ويَذْرَعُ هذي السهولَ الفسيحةَ، ليلكةٌ عرّشت فوق صبّارةٍ لا تنامُ، هدوء الغزال الأليف، جموحٌ كأنَّ دماك الخيولُ، كأنّ دماك الصهيل الجميلْ.

هي (الأربعون) التي ينزل الحُبُّ فيها كمثلِ النبوّة، ها أنتَ تدخل في الأربعينَ بكلّ أناقة لفظِكَ، كلّ أناقة صوتكَ، كلّ أناقة نوتاتِكَ المنتقاة كَوَردِ الحقول المُعَدِّ لأُنثى الكلام الأخير التي في اشتهاء المرايا؛ وها أنت تدخل في الأربعينَ بكلّ بهاء القصائد، وحدي أنا لا أزال بعشرين زنبقةً في كلامي أحاولُ أن أدخلَ الآن طقسَك يا أنت، قل لي لماذا سبقتَ خُطاي على هذه الأرض عشرين عاماً؟ أنا اليوم أبلغ من زنبقِ العمر عشرين زنبقةً يا حبيبي، وبي قد تفتّح مانغو وتوتٌ وفاكهةٌ من تَشَهٍّ، وخمرٌ وعنّابتان، ونهدٌ يسيلُ، كما البرتقال الشهيُّ على رافدٍ في أعالي الجليلْ.

أحبك يا شاعرَ الأربعين، فلا تتعاملْ معي بالأُبوَّة، أو بالصداقة، أو بالنصيحة، كُن لي حبيباً، وكُن لي جنوناً، وكنْ لي الخطيئة، كنْ لي، وكنْ لي، أنا بنتُ قلبكَ، بنتُ خيالكَ، أُنثى الكلام الأخير بأوتار صوتكَ، إنّي أُحبّك، هذا دمُ التُّوتِ في شامتي، إنْ أردْتَ الدّليلْ.

حَدَّادْ لسِّكة المسافة

هذي المسافةُ بيننا خطٌّ حديديٌّ طويلُ.

لا من مسيرٍ ينتهي فيها ولا يُجدي سبيلُ.

هو: كلّما جدّتْ خيولُ البال نحو سهوبها ركْضاً، تساقطتِ الخيولُ.

هي: لا التقَينا عند سور البحْر، لم يمنحْ دمانا البحرُ غيرَ الملح، لم تُكتَبْ لنا إلّا «المنازلُ والطلولُ».

يا.. قل لحدّاد المسافةِ لو يُدوِّر ما تمددَ من حديدِ مسافةِ الفقد المَهول، فكلّ دائرةٍ رحيلٌ، كل دائرةٍ وصولُ.

اصنع لها قمراً نحاسيَّ الكلاَم لكي تنامَ هناك عند تلال شرفتِها قليلاً، إنّها، هي لا تنام لِما بها من شهوةٍ وتَمنُّعٍ، كبتتْ تنهدَها الشهيَّ وأطفأت حُمَّى السفرْجَلِ بالسكوتِ وغصة القمصان، فاصنع كِلْمةً لصراخِها، لسكوتها، واسمع لها ما قدْ تقول، ولا تقولُ.

واحمل إليَّ شُجيرةً من صوتها، وبكاءَ عصفورَين فوق سريرها، عسلاً من النَّحل المخبَّأ في براري جسمها، أو جئْ إليّ بصوتها، ياااا صوتها لكأنما في الليل تنتحبُ الحقولُ.

ما تفعلين وتكتبين؟ أنا بعيدٌ؟ لي حضورٌ واضحٌ في نصِّك النَّسويّ في شكوى الأنوثة للمياه؟ تُرى مَحَوْتِ لهاثَ قلبي من لُغاتك؟ أنتِ كاتبتي الأثيرةُ، أنت كاتبتي، وقارئتي، وموضوعُ القصيدة، وَزنُها، أنتِ المطالع والقفولُ.

قمرٌ وحيدٌ بائسٌ، فوق الشراشفِ في سماء سريرها، قمر خجولُ.

نجمٌ وحيدٌ عند أفق قصيدتي الليليةِ الكلمات، نجمٌ مُطْفأٌ في خاطري، وأنا على جسدي دخيلُ.

كم يسقطُ الشعراء في كلماتهم، كم يكتبونَ ليكتبوا، أو يكتبون ليُسكتوا البركان في دمِهم قليلاً، أو يخيطوا بالكلام جراحَهُم وعيونَهم، ضاقتْ نصوصُ قصيدتي، ودمي يشقِّقه الذبولُ.

هذي المسافةُ بيننا خطٌّ حديديٌّ كأشداق الذئابِ على تخوم الليل والصحراء، ذئبٌ لا يزال هناك في صدري، ويَعوي فرطَ وحدتهِ، ويلعقُ جرحَهُ ودَماً على أعتاب غابتهِ يسيلُ.

خزفٌ قديم في زوايا المتحفِ المهجور قلبي في المسافة، دمعةٌ حجريّةٌ تمشي على طرق البلاد الخائنات، و«طابةٌ» ما بين أقدام الصّغار، ومسرحٌ لا شيءَ بين مقاعد الجمهور فيه سوَى الغبار، وصوتِ من مرّوا هناك ووزّعوا أصداءَهم خلف الستار، محطةٌ مهجورةٌ لقطار (ريّاق) القديم إلى الحجاز، ظلالُ من ذهبوا إلى الحربِ العظيمة ثم لم تَرجعْ سوَى أشباحهم قبل الغروب، ونجمةٌ شرقيةٌ في ليل أحزان البقاع، أتعلمون بحجم أحزان البقاع؟ ولا أزيدُ ولا أقولُ.

حزنٌ بقاعيٌّ شجيٌّ في دمي هذا المسا، من يشتري حزني البقاعيّ الشجيّ؟ لعلّ يهدأ في دمي هذا الصهيلُ.

حزنٌ بقاعيٌّ شجي في دمي، حزنٌ طويلُ.

أتعبثُ نفسيَ بالنّشيد

نظراً لضيق الوقتِ أفعلُ كلَّ شيء، كلَّ ما يحلو لذائقتي المريضةِ، لا أضيّع أيّ وقتٍ في المهام المنزليّة، ربما قال الجميعُ بأنني زوجٌ عصابيُّ المزاج، ووالدٌ من طينة الفوضَى، يعوّد طفلَهُ ألّا يرتّبَ وقته وسريرَه، ويحثه أن يقرأ الشعر الحديثَ وأن يعيشَ مع الرواية؛ ربما قالوا بأني عاشقٌ متفلّتٌ في الحُب، مكتظٌّ بحبّ الذات يُرهقُ من يحبُّ ومن تُحبُّ عيونَه ونخيلَها، ولربما قالوا: بليدٌ لا يجيء إلى الوظيفة باكراً، لا يستطيع تحمّلَ الروتين واليومِ الطويل وعبءِ أن يبقى أحاديَّ المكان، وربما سخر الذين سيعبرون أمام منزلهِ إذا يوماً رأوهُ يلاعبُ الأولاد في الحيّ القريب، وربما أمضي سُويعاتي مع الأطفال علّي أستطيع ولو قليلاً أن أجمّد ماء هذا الوقت كي أبقَى صغيراً، أو أقوم بكلّ شيء، لا أفوّت لحظةً بالتافهين ولا الذين يثرثرون ويدّعون الفهمَ والشعر الأخير، ولستُ أهدرُ حصّتي من هذه الأيام في النوم البغيض، فليس لي وقتٌ هنا في ردهةِ العمر الصغيرةِ كي أناما.

نظراً لضيق الشِّعر أكتبُ أيَّ شيء، لا أبالي بالبلاغةِ والمجاز ولا انزياحِ الواقع اليوميّ للمتخَيَّل الشّعري، لا، لا أدوّنُ ما يدور الآن في رأسي على الأوراق، لا أستخدمُ الحبرَ اللذيذ، وأكتفي بأصابعي لكتابةِ الأفكار في ورق الهواء، مجرّباً حبرَ الصنوبر، عطرَهُ الصمغيّ، حدّتَه المثيرةَ، لستُ أصغي مطلقاً للجنّ يأتي من وهاد الخارج الجسديّ، جِنُّ الشِّعر يأتي من هنالك، من ضجيجِ الماء في جسدي، ويأتي وفق أمزجتي، ويلقي فوق قافيتي كلاما.

نظراً لضيق القلبِ لم أعشقْ سوى امرأَةِ التوهّم، كلما حاولتُ أن أصطاد أنثى في بلاد الورد لم أعثرْ عليها، ثمّة امرأةٌ هناك تحاصرُ الماضي وترسم ما سيأتي، كلما صادفتُ عابرةً وقلتُ سأصطفيها لم أجد إسماً سواكِ أيا ابنة الصَّدَفِ البعيد، ويا ابنة البحرِ القريب ويا مزيج صنوبرات السفْح مع نخلٍ يطلّ على الخليج، ولم أجد إلّا حروفَكِ كي أُنادي الأخرياتِ، ولم أجد إلّا ملامحَكِ البسيطةَ كي أُرَكِّبَ وجهَهنّ، أراكِ في كل الصبايا، في المرايا، في النساءِ الآتيات إليّ من صخب المدينة والمقاهي، في الشواعر حين يمنحْنَ القصيدةَ وزنَ عينيّ-

النخيل، وفي الفتاة الجامعية حين يُتعبها الهوَى أو حين تسقطُ في فِخاخ مُدرّسِ النّقد الحديث، إذا يُتيّمها غراما.

نظراً لضيق تنفسي، للربو فيَّ، ولاكتظاظ سجائر السهر الطويل وللدخان هناك في رئتي أنا أتعبتُ نفسي بالنشيد، أطلتُ قافيتي وطوّلتُ الطريق إلى المعاني والغناء البوهيميّ، أنا أدرّب حبلَ صوتي أن يشفَّ وأن يرقّ وأن يصيرَ كخيط شرْنقة الحرير يدوّنُ السطر الأخير من انتحار فراشةٍ قرب البداية، ربما وتراً أخيراً لم يجلْ في بال أحزان الكمان، لعله يصلُ المغني القرطبي وربما يحظى بلازمة الموشّحِ حينما تأتي الحبيبة ثم يلقي فوق عشب سكوتها البنيّ قبلته سلاما.

نظراً لوسع الحبّ، أسرقُ من قميص حديقتي الليلي وردةَ نرجسٍ للنرجسية، زنبقاً للزنبقيّة، زنبقاً للزئبقية في شؤون مزاجها الشعريّ، أسرق من هدوء مسائها وتراً لموسيقى اليمام، لعلّني امتدّ فوق جفونها درجاً من الإيقاع، أو أغدو على شبّاك شرفتِها مقاما.

نظراً لبُعدك، لاتّساع مسافة اللُّقيا، لأشجار الحنين وغابة الشجن الكثيف تمدّ أذرعها طويلاً في البلاد وفي دمي وحدي كتبتُ قصيدتي، فلربما اتسع الكلام لموعد، أو ربما تغدو المطالعُ مطلعاً لحكاية مشحونةٍ بالواقعية بيننا [فأنا سئمتُ من الخيالِ، أنا مللتُ من انتظارك] ربما نجدُ اللقاءَ موقّتاً ما بين فاصلتين في وزن القصيدة، في فراغٍ صامت لتنفُّسٍ من قارئ مازال ينهكهُ التباعد، ربما نأوي قليلاً للشرود بعين قارئةٍ يؤرقها الحبيب، وربما تتحوّلُ الكلمات وَهمَ حقيقةٍ: تغدو «المقاعدُ» في القصيدة مقعداً تحت الظلال، تصيرُ مفردة «المظلة» بين أيدينا، ونتركها هنا لنسيرَ مجنونَينِ تحت الماء، يهمي فوق معطفنا حماما.

نظراً لأني لم أجد نفسي، وقفتُ هناك في البيت الأخير من القصيدة، بعدها دوّنت في ورق الهواء «شُجيرةً» قلبي على أغصانها بيتٌ لعائلة السناجب في الشتاء [أتعلمين بأن سنجابَ البراري وحده يهدي شريكتَهُ الورودَ بغير ميعاد] وعشٌّ لليمامة، ربما دوّنتُ في رمل الفراغ الأبيض الورقيّ إسمَكِ نخلةً، ونَصبتُ من حزني لكلّ العابرين على رصيف الحب والمنفى

ظلالاً، أو رفعتُ لكلّ من سقطوا من القتلَى على الدرب الطويلِ إلى الحنين أو البنفسج منزلاً في الريح أو لغةً-خياما.

نظراً لأنك في حياتي، في قصيدتيَ البسيطةِ، في كلامي العاطفيّ، وفي خيالي المتعبِ الشَّجريّ، في دميَ المُهَيّل بالتَّوجُّع، في تفاصيلي الكثيرة، في حنايا تُرّهاتي، في حديثي خارجاً من سطوة البنج المخدّر بعد موتٍ هادئ ومؤقتٍ. نظراً لأنك يا حبيبةُ ما استطعتُ وما أضعتُ وما أردتُ وما عجزتُ، أقول عنك أيا حبيبة فَلْتَعودي، مُتعبٌ «بيتي»، ووقتي فارغٌ كقصيدة النثر الرديئة، موجَعٌ ليلي، وأحزاني يتامى.

عُودي، إليَّ، أنا المسجَّى في القصيدة وانشري من فوق ملحمتي بكاءً أو خزامى.

فأنا وحيدٌ في القصيدة، مَلَّني ظلّي هناك، وخانني صوتي، وأفردني الندامَى.

ولْتخرجي مني قليلاً، من صنوبر أعيني حتى أرى، ولتتركيني، ربما أشفى قليلاً، ربما أُشفَى من البحر قليلا

ربما أشفَى من النخل قليلاً

واخرجي مني كثيراً ريثما أشفى من الشِّعر تماما.

من أين نأتي بتأشيرة للدخول إلى الحب؟

من السهلِ جداً بأن ندخلَ الحُبّ، أن يسقط القلبُ في فخ أنثى الصنوبرِ أو فخ بنتِ النخيلْ.

سيكفي لندخلَ في الحُبّ لو نلتقي صدفةً في الطريق إلى البحر - في كلّ يوم أجيءُ إلى البحر عند الصباح أقولُ -

- وقلتِ: أجيءُ إلى البحر في كلّ يومٍ صباحاً وأمشي لأخسر بعضاً من الوزن في عطلتي الجامعيةِ.

- أمشي لأخسرَ بعضاً من الوزن، أعني من الحزن، كيف إذاً لم نصادف ظلالَ خطانا معاً فوق هذا الرصيف الطويل الطويلْ؟

ويكفي لنغرقَ في الحُبّ أيُّ اكتشافٍ بسيط لمشترَكٍ بيننا، مثلاً أن نكون كلانا مواليدَ برج الحمام الغريبِ الطبائع، أو أن تكون الصفات التي نتميّز فيها بأنيَ قاسٍ كشوك الجبال، وهشٌّ كَلَيلَكَةٍ في الشتاء، وأنت كذلك، أنّ انفصاماً نعانيه يدفعُنا للبكاء بلا أيِّ حزن، ولا سببٍ واضح للبكاء، وأنّا نصابُ بِحُمّى المشاعر في حضرةِ الأزرق اللانهائيّ، أنّا نعاني كثيراً مع النوم [نأخذ أقراصَهُ مثل حلوَى الطفولة لكنها دون طعمٍ] وأنّا اجتماعٌ مريبٌ لكلّ التشابيه، كلِّ التناقض، أنّا افتراق الصدَى والهديلْ.

ويكفي لأن نتعثّرَ بالحُبّ أن يقذفَ الشِّعر فينا تعاويذه الزُرْقَ، يَجمعَنا في الأماسي السخيفة، (فيها الكثير من «الشعراء» وفيها القليل من الشعر) نهرب، ثم نُعِدُّ لأمسيةٍ تحتوينا معاً في كلام الشموع، وحيدَينِ فيها، وحيدَينِ فيها، وأقرأ: طفلُ الصداع الأخير أنا يا حبيبةُ، أقرأ: أنتِ القصيدةُ أنتِ البعيدة، أقرأ آخرَ ما يحلم الشِّعرُ بالشِّعر: أحلم فيكِ، بكِ، مع يديكِ، وتَسقطُ كلُّ الحروف التي جَرّتِ القلبَ نحو المسافة والبُعد والسَّفر المستحيلْ.

وانت تقولين: قُل لي متى سوف يُسعفني الليلُ أن يفتحَ السَّهلَ ما بين كفّيه أو أنْ يُخفِّفَ أحلامَهُ عَلَّهُ يهدأ النهدُ/ نهدي قليلاً، لكي أستريحَ من الليل والعسلِ المالح الحامض المتعدِّد فيه؟ أيا أنتَ كيف تغادرُ ليلي أنا احتجْتُ كفَّيْكَ هذا المساء سريراً لَعلّي أنام، فَبي وِحدةٌ تخطِف الآن أنفاسَ روحي، ولستَ هناك لتُقرضَني شفةً قبلةً، وترجعَني قبل عامين، تذكُرُ؟ من قبل عامين نمتُ مليّاً، وكان سريري من البحر والحبر والليلكِ الليلكيّ الشهيّ، وكانت ذراعاكَ أحلى وسائدَ روحي، وكُنّا نُطرِّز ليلَ التّوحّد بالبحر والشّعر والجسد-الزنجبيلْ.

وقد ندخلُ الحبَّ كي ندخلَ الحبَّ، عدوَى هو الحبُّ كالمرض الموسميّ، وندخلُهُ كي نعانيْ عوارضَهُ المخمليّةَ، نأوي إليه لكي لا يفوتَ القطارُ الأخيرُ حقائبَنا حين نَنوي الرحيلَ إلى بلدٍ كي نجرّبَ أحلامنا في الحياة، وكي لا نُحسّ بنقصٍ خجولٍ إذا اجتمع الأصدقاءُ وباحوا بأوجاعِهم في الغرام ونحن السكوتُ العقيمُ، ونحن الفراغُ الذليلْ.

وقد ندخلُ الحبَّ من أجل تلويحةٍ في الحديقة: كنتِ تَمُرّين بين الشُّجيرات وهْي تُفرفِطُ أوراقَ فصْل الحنين، على مقعدٍ لم يُزر منذ طفلينِ أو منذ عِقدٍ من الياسمين، أُصيبَ بداء الذُّبول وداء الذُّهول إذا امرأة أوقعَتْهُ وداسَتْ عليه وغابَتْ هنا خلف حُزن الوجوه، لِتُقفِلَ من خلفها الباب، بابَ الهوى والرحيلْ.

وقد يَسقُط القلبُ في الحبِّ من بعدِ ما يسقطُ الوعي في «البيبلو مانيا» [مرضٌ يشبه الإنفصام، يُعاني المريضون من هوَسٍ لا يُحدّ برائحة المكتبات وبالورق الرطْب بالحِبر] نَنْسَلُّ في آخر الليل للحانة الورقيّة نسكرُ بالحبر، أو نتبادلُ أطراف أعيننا بالكلام ونَعْتَلُّ بالشِّعر أو بالروايات، تحكين عن «عابرٍ كالسرير» وأحكي «يليق بك الأسودُ المخمليّ» لنقرا سوياً «بقصّةً حبٍّ مجوسيِّةٍ» ثم نحكي هنالك عن «صاحب الظِّلّ -ذاك- الطويلْ».

ألا رُبّما ندخُل الحُبَّ من دون إذنٍ: يتامَى، أُسارى، وحيدينَ، أو عابرينَ فرادَى على ثلج هذا السبيلْ.

من السهلِ جداً -يقول المجرّبُ- أن ندخلَ الحبَّ، لكننا كيف نأتي بتأشيرةٍ للخروج من الحبِّ؟ يَحتارُ هذا المُحبُّ القتيلْ.

نعود من الحب دوماً (بخُفّي حَنين!)

خفيفاً - ومن كل شيء- أسيرُ إلى موعدي مع يديك [وأعرف أن ليس من موعد بيننا يا صديقةُ] لكنّ هذا الصباح شهيٌّ ويفتح باباً إلى الحبّ والشّعر، يفتح في القلب نافذةً كي يطلَّ عليكِ، ويسرح في غابةٍ من بكاءْ.

فلا ذكرياتٍ تموج على بحر بالي، وترهقني بالمراكب وهي يعالجها المطر الموسميّ، ولا وجعٌ يَخِزُ القلبَ عند اليَسار، ولا مشهدٌ يُستعاد، ولا ضِحْكةٌ تخدش الآن صمتَ الشتاءْ.

ولا من زمانٍ، بياضٌ هو الوقت، دائرة لا تدور، فلا هو يومٌ لميلاد عينيك، لا هو عيد المُحبّين [هل يعرف الحُبُّ أنّ الذين أَتَوْهُ سُكارى وفيهم من الحُلْم والكِبْر ما في الأباطرة الفاتحين، لقد رجعوا خاسرين وعادوا (بِخُفّيْ حَنينٍ) وعادوا بغير يَدَيْنِ لكثرة ما لوّحوا للغياب] فيا حُبُّ رفقاً بهذي القلوب الصغيرة، مُنَّ عليها ولو كِلْمَةً من شِفاه الحبيب، (ولو كِذْبة من شفاه الحبيب)، ولو لمسةً في ليالي الخفاءْ.

ولا من مكان لكي نتقابل، ليس بوسع الحدائق أن تحتوينا وقد صار فيها من الشَّجر المُتعَبِ الشَّجَنِيّ كثيراً، ولا البحرُ يَفتَح كفَّيه كي نستريح إلى قهوة في المنارة، لا مِلحَ بعدُ هنالك في البحر كي يمنحَ الجرحَ ما سوف يَشفي الكلامَ الغريبَ، ولا نورسٌ يستطيعُ المجيءَ ببعض الرَّسائل، بيضاءَ بيضاءَ، لا نخلةٌ فوق هذا الرصيف الطويل تُظلِّل مقعدَنا المُستباح من المطر الحامضيّ هنا في المدينة، من أين آتي بأمكنة للتلاقي، سألقاكِ هذا الصباح على هامش النص، أو ربَّما عند مَتنِ العراء.

وحيداً، كَظِلِّ المنارة آتي إليكِ، وحيداً كما وَطَني في البِلاد، وحيداً كأُغنيةٍ في بلاد السواد، وحيداً كَطِفلٍ يَتيمٍ يُحاوِلُ أنْ يَجمَع العِيدَ في راحتَيْهِ ولَكِنّهُ ليْسَ يَجني سِوى خَيْبَتَيْنِ، يَدَاهُ مِنَ البَردِ مثقوبتانِ كَشُبّاك بيتٍ قديمٍ، وحيداً كَلَيْلَكَةٍ في الخريف، كثيراً كَحافِلَةٍ

للجنود الَّذين يَعودون من حربِهِمْ خاسِرين، وهُم يَعلمونَ يَقيناً بأنْ لمْ يَكُنْ موتُهم غيرَ محضِ الهباءْ.

خليّاً من الكلماتِ التي طالما قالها العاشقون لأنثَى الغرابة فيهم، فلا «اشتقتُ» تكفي ولا «كم أُحبّكِ» لا «إنَّ عينيك قهوةُ ليلي وبالي» ولا «يا صغيرةَ قلبي رأيتُكِ بالأمس في الحُلْم تمشين درباً طويلاً على ضفة الحلم/حلمي وناديت حتى تلاشى الكلامُ وحتى تَسَمَّرَ قلبي وراءَكِ» كم خِفْتُ أن تتركيني وحيداً، أنا مَن وَهبتُ قريحَة قلبي مُقابل أن تنظري في عيوني، فإنْ غادَرَتْني عيونُك من بعد ما ضاع مني الكلامُ فكيف سأحكي؟ ومِن أيِّ ثقبٍ سأنظُر للعالم المُتَلوِّن من دون لونٍ؟ وصرتُ أُناديكِ في الحُلْمِ دون ابتداءٍ ويضحكُ منّي صدًى باهتُ مِن ثُقوبِ المساءْ.

أجيئك دوني إلى موعدٍ لن يكونَ، إلى موعدٍ لا يكونُ، وأعرفُ أني كمَنْ ينخُل الماءَ في كلِّ يومٍ ليَجمعَ منهُ الوجوهَ الغريقة، أو مَن يُطرِّز وجه الهواء بأسماء من عَلَّقُوا قلبَهم فوق حَبْلِ الهواءْ.

أجيئكِ، فابتعدي في المسافة، حتّى أعودَ غداً نحو موعدنا الـ (لنْ يكون) فإنّي أعيشُ على أملٍ غامضٍ أن أراكِ، لأكسرَ مرآة حزني ووحدتيَ المستدامة، لكنّما أملي قدْ يَموتُ إذا كَتَبَ الشِّعرُ يوماً لنا أنْ يَكونَ اللِّقاءْ.

أنا طفلُ هذا الصُّداع الأخير، أعود من المَوعد المُشتهى دون قَلبي، أعودُ بـ (خُفَي حَنين) مِن الحُبِّ، أضحك حين أرى العاشِقِين، أُتمتِمُ في سِرّ قلبي: سلاماً سلاماً على الأغبياء.

وأضحَكُ أكثرَ حينَ يَمُرّ كلامُك ذاك المساءَ الأخيرَ على دفتَر البحرِ في خاطري: هل يُضير القصيدةَ شيءٌ، وهل يفقد النَّصُّ إيقاعَهُ العذبَ والفوضويَّ إذا لم نسِر عاشقين، وسِرنا معاً فوق هذا الرصيف الطويل الطويل، كما الأصدقاءْ؟!

بِخُفَّي حَنينٍ نعودُ من الحُبِّ دوماً، ولكنّنا فرحون كثيراً بهذي الخسارات، نَحسُدُ أنفسنا بالكلام الجميل، نُخَدِّرُ أفواهَنَا بالغِناءْ.

مِثل الذي يرحل الآن عن بيتهِ

غَداً حينَ نَمضي غَريبَينِ، كلٌّ إلى وجهَةٍ أو طريقٍ، وحين تُديرين ظِلَّكِ كَي تَرحلي نَحو حُبٍّ جَديدْ.

وَحين يَصير الذي في دِمانا حَنيناً مريضاً مِن الذِّكرياتِ، وَصَوتًا بعيدًا بعيدًا بَعيدْ.

وحين يَصير الزَّمانُ إطاراً نُعلّقُهُ في الجدار الشَّريدْ.

وحين تَصير الأماكِن عِبْئاً عَلينا:

أُصابُ بِوَخْزَةِ قَلْبٍ إذا طُفتُ كُلَّ الشَّوارع في بَلدة الماء، ذاك لِأنيَ هاتَفْتُ لَيْلَكِ غِبَّ الطَّواف وأهديتُ لَيْلَكِ زنبَقة النَّهر، هذا الَّذي سَالَ عكْس الخرائِط نَحوَ الشَّمال، وها إنَّني مثل نهْر التَّناقض أُمضي الشِّتاء الِّذي جَاء معْ وحدَةِ النَّهر نَحكي الكلامَ الإباحيَّ، نَشدو بِما في دِمانا، ونَشكو وحيداً يُشيِّعُ أسْرارَهُ في جُيوبِ الوحيدْ.

[والهِرْمِلِيّاتُ يَأتينَ لِلنَّهر يَغسِلْنَ أجسادَهُنَّ الحَميمَةَ مِنْ رَغْوَةِ النَّهر، يَحكين سِرًّا وهمْساً ويَحزَنَّ مِنْ وَحدَتي أو جُنوني، ويَنثرْنَ بعضَ الكلامِ الحميمِ على جُرح قَلبي: سَلامٌ عليْكَ وأنتَ المُجرَّحُ بالوردِ والحُبِّ، أنتَ القَتيلُ وأنتَ السَّبيلُ وأنتَ الغريبُ وأنتَ الشَّهيدْ]

ويَرفضُني البَحر حين أُحاول أنْ أتمشَّى على ظِلِّ نَخلِ الرَّصيف مساءً: أتأتي لِوحدِكَ؟ أينَ الّتي قاسَمَتْكَ الطَّريق إلى البحْر حتَّى الصَّباح؟ وأين يداها؟ وأينَ ابتسامتُها حين تَغفو يَداك على خَصرِها دون إذْنٍ؟ وأينَ البُكاءُ الحميمُ الَّذي أسرَفَتْهُ على كَتِفَيْكَ، على ضِلْعِ قلبِكَ؟ كيف تَجيءُ إلى البحر وحدَك مثل الكلام الَّذي لمْ يجِئْ في ظُروف البريدْ.

ويُتعِبني الجِسر، ذاك المعَلَّقُ بين البقاع وبينكِ، يَتْبَعُني الجِسر حيثُ اتَّجهْتُ، يُذكِّرني بالعناقِ الحميم أواخِر عام الثُّلوج، أوائِل عام الرِّياح العَتِيَّةِ، في اللَّيلة المِفْصَليَّة بيْن الغِناء

وبيْن البُكاء: شَرِبْنا الشَّراب الَّذي يُدفِئ القَلب أو يُطفِئ القلبَ، حَدَّقْتُ في راحَتَيْكِ طويلاً، وقبّلتُ وجهَك مثل الَّذي يَرحَلُ الآنَ عنْ بيتِهِ حين تأتي الحروبُ الطَّويلة حينَ يُقَبِّل ورْدَ الحديقَةِ قبلَ الرِّحيلِ، وبابَ المنازِل قبْل سُقوط القذيفَة في البَيْتِ، قَبَّلْتُ كَفَّكِ [كَمْ أذْكُر الآن: كنتِ تقولين: تحمِلُ كَفِّي كما تحمِلُ الماءَ نحوَ السُّنونو العُطاشى، وتحمِل عني يَدي كالأغاني] فَكَيف تصيرُ الجُسور خساراتِنا المْخمَلِيَّةَ؟ كَيف سَأعبُرُ ما بينَ حزن البِقاع الكثيف وزُرقَة بحْر العَواصم دون ابْتلاع المَرارة، دُون التَّكسُّر؟ كيف سَأُقنِع قلبي الَّذي أتْقَنَ النَّار حَدَّ التَّفجُّر أنْ يغْدوَ الآن شيْخاً حكيمًا سخيفًا بَليدْ؟

ولا يتذكَّر وجهي الصَّنوبرُ والأَرْز: كيف نَسيتَ ملامِح قلبي أيا شَجَرَ الله فوق الجبال؟ أما تَتذكَّر: سِرنا سَويًّا أنا والكثيرة [يرتدُّ فيَّ الصَّدى: «والمُثيرة»] كانتْ تُسابِق ظِلّي صُعوداً وتضحَكُ: يا..كَمْ كَبرْتَ، ولا تستطيع اللَّحاق بِظلِّي هُنا في الجبال القصيَّة، لا تستطيع الوصول إلى شُرفة البحْر أعلى التِّلال، فهَيِّئ عيونَا بلون الصَّنوبر كي تستعِيدَ البُكاء الختامِيَّ عِند افْتِراق الظِّلال، وجَهِّز لأجلي خِتام النَّشيدْ.

غداً حين تمضي خُطاكِ بعيدًا، سأُقفِل قلبي الصَّغير عليكِ، وأكتبُ في مَدخل الرُّوح: «أغلقتُها للصِّيانة» أو سَأُحاوِل أنْ أُخْفِيَ النُّدَبَ اللَّيلكيَّة في الرُّوح عبْر المساحِيق والشِّعر، أشطُبُ لفْظ الحبيب من المُعجم «العاشِقِيّ» لأَكْتُبَ لفْظ الصَّديق القريبِ الغريبِ القديمِ الوحيدْ.

[سَأحتاجُ مَوسوعتَين مِنَ الكِذْبِ مَعْ مُعجمٍ للنِّفاق لَعَلّي أُغيّرِ وَصْفَكِ في القَلب: كُنْتِ الدَّخيلة في قِصَّة العُمر، صِرتِ الحَ بيبَة، صِرت الحَ ديقة، صِرتِ الصَّ ديقة، صِرتِ الكَلامَ الرَّصين الدَّقيق، وصرتِ الشِّتاء العَصِيَّ الجليدْ]

سأُطفِئ مِصباح قلبي وأسهَرُ في داخِلي واحدًا دونَ ثانٍ لهُ في القَصيدَة، لَو أثْقَلَ اللَّيلُ قلبي، فَلِي امْرَأَةٌ وحدَها تستطيع الدُّخولَ عَليَّ لِكي تمسَح القلب مِمّا بِهِ مِنْ غُبارٍ كثيفٍ، ستدْخُل أُمّي، تُضَيِّفُني وجْهَها مِثل حلوى التَّشهِّي إذا طَلَّ عِيدْ.

لَقَدْ كُنتِ كُلَّ النِّساء بِقَلبي، ولمْ تستطيعي الأمومَة مع طفْل قلبي، فما حاجَتي بَعد هذا لِقلبك، هذا المساءُ وحيدٌ كثيراً، أنا كَالمَساءِ وحيدٌ تمامًا، مساءٌ غبيٌ، مَساءٌ كثيفٌ، مَساءٌ كفيفٌ، مَساءٌ وَحيدْ.

ثوب قصير

وأنتِ تُريحين رأسَك هذا الصَّغيرَ لكي تَدخُلي في حدائِقِ نَومِك، فَلْتَذكُري أنَّني غارقٌ في عُيونِك حَدَّ التَّلاشي و«حتَّى التَّعَبْ».

وأنتِ تُذيقين هذا السَّريرَ - سَريرَكِ - فاكِهةَ الجَسَد - الياسمينةِ، أو تُقلقي راحَةَ الشَّرشَف المُخمليّ إذا نِمتِ فيه رويداً رويدًا، فلا تَتَناسَي بِأنَّي سآتي لِأَحْرُسَ جِسمَكِ من حُسْنِهِ الغَضّ حتّى كأني جميع النّواطير في بال هذي القُرى حين يأتي المَساء إليها، وقَدْ شَبَّتِ الحُمرةُ المُشتهاةُ على قَلْبِ هذا العِنبْ.

وأنتِ تسيرينَ نَحو الخِزانة كي تَنتقي مِن ثِيابكِ نَصّاً قصيراً مِن الشِّعر كيْ تَلبَسيهِ، وكيْ تَخرجي للنَّهار القَصير، فلا تَنْسَي الآنِ أنّي تَركْتُ العُيون على كُمّ ثَوبِكِ زِرِّينِ مِنْ نَرجس لَيْلَكيٍّ، وشَمْسَيْنِ مِن فَرحةٍ أو عَتَبْ.

وأنتِ تُعِدِّين قهوة صبْحكِ كي تِشربيها على مَهْلِ مَهْلِكِ «ولْيَنْتَظِرْني الجَميعُ لِآتي» تَقولينَ مِمّا بِكِ من غرور (الأكاسيا) ومِمَّا بِعينَيكِ مِن كِبرياء الإناثِ الجَميلاتِ في ليْل «cannes»، فَلْيَنْتَظِرْني الصّباحُ لِأُكملَ فنجانَ بُنّي، وهل يَطلعُ الصُّبح إلّا إذا شِئتُ؟ هلْ يَتفتَح وَرْدُ الحدائِق إلّا إذا مَرَّ ظِلّي عليْها؟ وهلْ يَتَضَوَّع عطْرُ الزَّنابق في كُلِّ درْبٍ إذا لمْ أَمُرَ؟ ألا فانْتَظِر كي أجيءَ لِيأتي الصبّاحُ الجديدُ، وأنتِ تقولين ذلك فَلْتَذكُري أنّني واقفٌ تحْتَ بَيْتِكِ يا بنْت قَلبي أنا والصَّباحُ الجديدُ، نُحاوِل أنْ نَجمعَ الضَّوءَ مِن خطوَتيْكِ على دَرَجِ البيتِ كي نَحتَسي قَهوةً مِن عيونِكِ، ثُمَّ نَسيرُ إلى شُغلِنا في الكتابَةِ، في نَشْرِ أسْمائِكِ اللَّيْلَكِيِّة بين المَقاهي لِتَخْضَرَّ أشْجارُ هَذي المَدينة، كي تَسْتعِيدَ المَقاهي تَلاوينَها في أماسي الشِّتاء، وكَي يَغرَقَ البَحرُ هذا الصَّباحَ بماء الذَّهَبْ.

وأنتِ تقولين لي مِن بَعيدٍ: صباحُكَ وردٌ، بِصوتِكِ هذا المُطرَّزِ بالأُغنياتِ الشَّفيفَة والماء واللَّثغة الـ مِنْ أعالي القُرى في البِقاع الشَّجيّ، أُصابُ بِكُلِّ الدُّوار، وأَذْوي كَشَمْعِ الكَنائِس بعد

انْتِهاء الصَّلاة، «كَنَجْمٍ قَريبٍ» تَوارى وراء الكَلام الشَّهيّ، كَنَهْرٍ صَغيرٍ على بالِ شاعِرةٍ مِن مَقام الأُنوثة، أَذْوي كشَيءٍ بِلا أيِّ إِسمٍ، ومثل المُهاجر لو جاءَهُ صوتُ «أُمّي» مليئاً بِرائحة العُشب والخُبز والهَيْنَمات، وقدْ هدَّهُ اللَّيل حيْن اغْتَربْ.

وأنتِ تَعودين للبيْت قبلَ المَساء مِن الشُّغل، كيْ تَستجِمّي، وكَي تَستريحي، تَعالَي قليلاً إلى راحتيّ وأَعطي دمِي من يدَيْن كما الماء بعضاً من الأُوكسجينِ الشَّهي لأُكمِلَ هذي الحياة بما أستطيعُ منَ الحُبِّ والشِّعر والحُزن والسَّهر المُستَمِرِّ، ولا تَذكُريني إذا ما رميتِ ثيابك كي تَستحمّي، أغَارُ مِن الماء، أُشْفِقُ أيضاً لحال المياه التي سوف تسْقُطُ بيْن يَدَيْكِ دُموعاً مِن الفُلّ ممّا بها من تَشَهٍّ ومانغُو، ستسْقُط مثل زهور الإجاصِ على جِسمك المشْمِشِيّ البَهيّ، وتسقُط مثل الرَّنين الذي يُسقُط الصبحَ من جرس الراهبات ويَسري وراء خُطاهُنَّ تحْتَ الصَّنوبر في الدَّيْرِ، قلبي سيَسقُط أيضاً كَمثل المياه كما يَسقُط اللَّحنُ عن سُلّمٍ في كتاب الأغاني لكي ينتميْ لاحتِمال القصبْ.

وأنتِ تَقومينَ أو تَقعديْن، وأنتِ تنامين أو تَسهرين، وأنتِ تَسيلين أو تقرئين، وأنت تُديرين وجهَك عن كل شيء وعن أيِّ شَيء ولا تَفعلين سِوى ما يَروقك، فَلْتَذْكُريني قليلاً قليلاً، أو فامنَحيني قليلاً من الوقْتِ كيْ أَلْعَبَ الآنَ في حَقْلِ بالِكِ، إنّي أنا طِفل هذي النُّصوص الشَّقيَّة، وَلْتَعْذُريني إذا ما عَبثْتُ بمسرح قلبك، «كَرْكَبْتُ» لَيْلَكِ، إنّيَ في عشْقِ عَينَيكِ طِفلٌ شَقيٌّ كثيراً، مُصاب بفرط النشاط الغرامي والعاطفيّ، وحيث أَحُلّ أُثير الشّغَبْ.

غريبٌ هو الحُبّ

لم يكُنْ ليَ أصدقاءُ سوى النهرِ آوي إلى مائهِ كلّما انتابني وجعٌ مخمليُّ الغوَى، أو حنينٌ إلى لا أحدْ.

لم يكن لي أصدقاءُ سوَى واحدٍ أسمرِ القلب لا يشبه الطين أو يشبه الطين والعشْب، في دمِهِ لَيْلَكٌ من كلامٍ ومعنى، لَهُ أعينٌ مالحاتٌ من الدَّمع، قاسمتُهُ خشبَ الطاولات، وحافلةً تعبُرُ الفجر نحو الصبايا على مقعد الجامعات، وقاسمتُه الحبر، كُنّا «نُطيّرُ» أوراقنا طائراتٍ ونصنع منها زوارقَ نحو الكلام الجديد ونَحْو البلادِ الحميمة، قاسمْتُه الليلَ والله والبندقيةَ فوق التلال وأوجاع قريتِنا المُتْعِبات، وخالفْتُهُ في القصيدة، قالَ: القصيدةُ لا تُطعِم النّاس خُبزاً، وتَنحو طريق الكَثافة تحْمِل هَمَّ الغُموض لها طابَعُ الذَّات، ذاتيَّةٌ بامتيازٍ وتَنأى بِصاحبِها عن قَضايا البِلاد، أُفضّلُ نَصّاً بسيطاً ونثراً خفيفاً عن النّاس، يحكي مواجعَهم في المساء ويحكي بساطة أحلامِهِمْ عن رغيفٍ طَريٍّ، وخالفْتُه جُرأةً، كُنتُ أكثرَ منه انفعالاً إزاء السِّياسة، أعلى صُراخاً، وأوْضَحَ صوتاً بِتَعْرِيَةِ السَّاسَةِ المُنْتَمينَ افتِراضاً إلى وجَعِ المُتْعَبين، وخالَفْتُهُ في النِّساء: لَهُ طبعُه الهِرْمِلِيُّ الخجولُ إزاء النساء ولي جرأةٌ في اقتحام الغُموض الذي في عيون النّساء [لقد غيَّرتْكَ المقاهي هناك بوَسْط المدينة، بيروتُ أعطتْكَ بعض الوقاحة -كان يَقول- وكانَ يُسِرّ قليلاً: حَسَدْتُكَ جداً على غَزَلٍ فاضِح بالنِّساء، وإنّي تمنَّيْتُ لو أستَطيع اقتناصَ الغزالاتِ مثلَك] كُنَّا صَديقَيْن جداً، شَبيهَيْن جدّاً، وضِدّينِ جداً، وسِرْنا غَريبَيْن نَحْو الأبدْ.

ولا أخوةٌ من دمائي لِكي أتّكي حين تأتي الخناجرُ أو حين يُنهِكُني الرَّكض، لا أخوةٌ كي أُسَنِّدَ رأسي وأُلقي غيوم السَّواد التّي تُثقِل القلب، لي صُورةُ الأُختِ وهْيَ مُعلَّقةٌ في الجِدار القديم، لقد سافرَتْ للَّسماء ولم تُمهِلِ القلبَ - قلبي- لِيَكتُبَ: عيناك أوسَعُ مِن زُرقة البَحر، كيْف استَطعْتِ الغياب ولم تترُكي غير ملحٍ جديدٍ على الرُّوح، لم تَقرئي ما كَتبتِ مِنَ الشِّعر [كم يَصْعُبَ الآن أن أقرأ الشِّعرَ شِعرَك من دفترٍ غامِض في الخِزانة بَعد غيابِكِ خلْف التِّلال]

ولا أستَطيع المَنام على حضْن أُميَ كي أستريحَ فَفي شَيبها تَعَبٌ لا يَموت، وفيها من الأزْرق البَحرِ، في عينِها ما يُشابِهُ «رانيا» أنا كُلّما لاحَتِ إمرأة مِن بياضٍ وَزُرقَةِ عَينٍ، تُثير البُكاء كثيراً بقلبي وَتَفْتحُ في البال جُرحاً قَصيّاً وليلاً ثقيلاً كَحَبْلِ المسَدْ.

وجئتِ،

تَغَيَّر وجهُ الحديث معَ النَّهر، صار الحديثُ شهيّاً وأزرق مثلك [لا أعرف الآن ما سِرُّ هذي العلاقة بينكِ يا طفلة الرّوح والقلب مع أزرقِ البحر، هل للقلوب التي في الرسائل آثارُها في خيالي تِجاهَك (تُهدينني في الرسائل قلباً من التوركواز) تُرى كان للحبر والبَحر دورُهُما في العلاقة مابيننا يا صغيرةَ قلبيَ فالبَحر والحِبر يَرتديان السَّماء وزُرقتها في الطَّريق إلى الحُبِّ] صار الحديث مع النَّهر أزرقَ، صار الكلام كثيراً وصار الشُّرود كثيراً، وأمسَكَني النَّهر بالجُرم: يبدو سَقَطْتَ بِفَخٍّ لذيذٍ يُسمَّى الغَرامَ، أوِ اكْتظَّ قلبُكَ من قلْبِها، هل تُحِبُّك؟ أوْ هَلْ لمَسْتَ يدَيْها؟ أَقَبَّلْتَ توتاً شهيّاً على شفَةٍ من ثُغاء؟ وهل متّ يوماً بذاك الجسدْ؟

وصار لِقلبي كثيرٌ كثيرٌ من الأصدقاءِ:

هنا سروةٌ في الطّريق إلى السّوق، صفصافتان على ضِفَّتَيْنِ مِنَ النَّبع، راديو يُرافقني بالأغاني الحَميمة، عصفُور دُوريْ يُثير حَفيظَة كلِّ الحَسَاسينِ في شَجْرة الحَور، أو رُبَّما حجرٌ نافر خلف سُور الحديقة، وجهُ حصاةٍ يُشكِّلها النهرُ، أطفال كلّ الشوارع، صوتُ التلاميذ في الحافلات وهم يَعبُرون إلى مَلَلٍ في المدارس، والنّاس صاروا جميعاً جميعاً من الأصْدقاء، وصار النَّهار أمامي كَثَوْبِ المهرِّج، مثل الأغاني بِـ (كُوبا) صباحاً على شرفة البحر، مثل التلاوينِ في كفّ تلميذةٍ في الحضانة، أو مِثل صُبح الكنائس يومَ الأحدْ.

غريبٌ هو الحُبُّ كيف يُغيِّر أحْوالَنا يا حبيبةَ رُوحي؟ وكيف تَفيض الأُنوثة فينا إذا ما وقَعْنا على الحُبّ؟ كيف يُثير المياهَ القَصِيَّة فينا، ويَتْرُكُنا في مَهَبِّ الزَّبَد؟

أحبُّكِ، يا ظِلَّ روحي الطَّويلَ، ويا جَسداً مثْل حُزن البِقاع، ويا بِنْتَ قَلبي الَّذي فَرَّ منّي وراءَكِ مثل الغزال وما عاد من يَومِها صَوب بيتي، وأعشَقُ وجهَكِ هذا المطرَّز بالشِّعر والنَّجَمَات الثَّلاث.

لو انني امرأة ٤

لَو أنَّني امرأة لَكُنْتُكِ

حينها سأُعيد عَدَّ أصابعي وأقول: يا للشمع، يا لزنابق الماء الرقيق، ويا لرائحة الصنوبرِ في الحكايةِ، عن ربيعٍ حالمٍ في «الألْبِ» يَحكي عن إثارَتِهِ الغريرة، يا لعَشْرٍ من تراتيل الكَنيسَةِ في صباحات الأحدْ.

ولَكُنْتُ أنْظُر في المرايا كي أرى جسدي بهياً كالمياه وساطِعاً كالزَّيزفون على البلاد، ودافئاً كالشّمس في لغةِ القصيدة، طافحاً بشقاوة التُّفاح لو يوماً نَهَدْ.

لو أنني امرأةٌ لكنتكِ،

حينها سأحِبُّ نفسي وحدها، سأكُونُ مُتهمّاً بِكُلِّ النَّرجسية، سوف أعشَقُ صُورتي قمراً على وجْهِ المياه، أقولُ لا شيءٌ يليقُ هناك بي إلّا أنا، جسدي لأجلي، كُلُّ هذا اللَّيلك السِّري لي وحدي أنا، والزنبق اللَّيْليُّ لي وحدي أنا، والنّرجسُ البرِّيُّ لي وحدي أنا، والتُّوت والكَرَزُ المُكَلَّل فوق جَلّ الياسمين، حقول زهر اللَّوز في جسدي لِنَفسي، كُلُّ شيء فيَّ لي وحدي أنا، فأنا الكواكب والدُّنى، وأنا المجرَّات الغريبة والنُّجوم السَّاحرات، أنا المسارُ، أنا المدارُ، أنا البداية والأبدْ.

لو أنّني امراةٌ لكنتكِ،

ثم أدخُلُ غرفتي وأُدير مذياعَ الحنين وأحتفي بالشّامَتَينِ على ذراعي، نَجمةٍ في الصدر تومِض كالفَراشَة، لَثْغتي بالرّاء، لَكْنَتِيَ الخفيفةِ والهجينَة من جُماع المشمش القروي مع مطر المدينة، أفرشُ النعناع فوق الأرضِ كي أمشي عليه فلا أُحِسُّ بُرُودَةَ الأرض الرَّخيمة،

ربّما وَشْوَشْتُ نفسي في السَّرير: أيا أنا سُبحان وجهي في المرايا لم يكُنْ شَبَهٌ لِوجهِيَ، لمْ يَكُنْ كُفواً أحدْ.

لو أنّني امرأةٌ،

دعينا الآن من هذا الهراءِ الشّاعري، وأشعلي فيّ المذكَّر أيُّها التّاء الطويلة والمؤنثة الجميلة والبلاد المستفيضة بالغواية، يا القصيدةُ لا يطاولُها النُّحاة ولا الرُّواةُ ولا الغواةُ؛ ويا كلام العائدين من النِّهايات القصيَّة، أشعلي فيّ الحصانَ البربري ليَذْرَعَ الرِّيح البعيدة في السُّهوب، وأشعليني عاشقاً لم يسبِقِ العُشَّاقُ أنْ جُنُّوا كَمِثلِ جُنونِهِ، أو لم يُشاهَد مثلُه في الأرض يَهذي وحْدَه: لو أنّني امرأةٌ لكنتكِ

أو لَعِشتُكِ

أو لَمُتُّكِ

أو لَكُنتُ اللاأحدْ.

سيّدة الكائنات اللطيفة

على غيمة في الأعالي أُحاولُ أن أكتُبَ الآن شيئاً إليكِ، وتحتيَ أضواءُ هذي البيوت الصَّغيرة، أقتُلُ هذا الزَّمان الثَّقيل بِعَدِّ البيوت البعيدة، أُخطِئُ عَمْداً [كَطِفلٍ يُحاولُ عَدَّ النُّجوم ليغفوْ قليلاً ويحلمَ أنَّ الصَّديقةَ في فَصْلِهِ المدرسِيّ تُغازلُهُ ضِحْكَةً ضِحْكَةً، ثم يُخطئُ عمداً لكي يلمَحَ الضحكتين] أعودُ إلى العّدِّ من أوَّل الحُبِّ حتّى انتهاء السَّماء لَعَلَّ يَمرُّ انتظاري سريعاً، يمرُّ «انتظاري» ويجلس قربي، ونفتَح أخبار هذي البلاد، ونحكي عن التِّين والوجَعِ المُخمليّ، عنِ الحُبِّ والشِّعر، ثم يَسير «انتظاري» بعيداً بعيداً، ولا ترجعينْ.

على سروةٍ في بداية بالي أُوضِّب قلبي نُصوصاً وفوضى، وأدعو يدَ الشِّعر أنْ تَكتُبَ الآن شيئاً، وأنْ تسكُبَ الآن شيئاً، أيا شِعرُ أدعوكَ كي نتقاسم هذا السُّكوتَ البّهيّ، وهذا العذاب الشَّهيَّ، لِنكتُبَ شيئاً سخيفاً عن الحُبِّ، يااا كم أُحبُكَ يا شِعر حينَ تَجيءُ وتُشعرني كم أكون سخيفاً أمام مرايا يَديْها، يَمرُّ هنا الشِّعر، يَجلسُ قُربي ويضحَكُ مِن تُرّهاتي الكثيرة، كم حاوَلَ الأوَّلون وكَمْ جَرَّبَ الآخِرون كتابةَ شَيءٍ عن امرأة الأُغنيات، وعادوا جميعاً إلى مُدُنِ الخـ (غ) ائبين.

على نَجمةٍ في الظِّلال أحاولُ أن أقرأ الآن شيئاً لأكتُبَ عنكِ:

رسائلَ (كافكا) إلى حُبِّهِ الهوَسِيِّ المريض (ميلينا) وأسرقُ مِنهُ التَّعابيرَ: سيّدةُ الماءِ أنتِ، وسيّدةُ الكائناتِ اللَّطيفةِ، سيّدةُ الوقتِ والأُغنياتِ، وسيِّدةُ القِرْفَةِ اللَّيلَكِيَّة قَبلَ الصَّباح وآخرُ ما دَوَّنَ المُتعَبون على حائط اللّيل، أوَّلُ تُفاحةٍ قبْلَ موتي المُؤجَّلِ، آخرُ ما فكّر الوردُ في شرفة العاشقات، وسيِّدةٌ مِنْ حَنينْ.

على فكرة في الشّمال أجرّبُ حظّي، وحظَّ الغريبِين في داخلي الفارغ الأمنيات لأكتبَ عن شفتَينِ من العِنَب الحامِضيّ، وعن شَعرك المخمليِّ القصائدِ، عن ليلتينِ تنامان تحت الحجاب الأنيق، وعن تلَّتَينِ مِنَ السُّكّر السَّاحليّ تُثيران هذا القميصَ الشَّفيف، وعنْ جسدٍ

من خواطرِ كُلِّ الإلهات، عن حزنيَ الهامشيّ إزاء جمالِكِ، أجملُ شيءٍ بهذا الجمالِ الذي فيكِ أنَّكِ دوماً تُثيرينَ حُزني، وأنّك أنتِ الجمالُ الحزين.

على شرفةٍ لا تُطلُّ سوى نَحو بَحر الخَيَال، أُطِلُّ عليكِ، ولا ألمَحُ الآن وجهَكِ، ها قد تأخَّرَ وجهُكِ في النّوم فوق شراشِفِ روحي، وروحي يُجَعِّدُها كُلُّ شيءٍ، وروحي يُؤرِّقها هاجسُ الشِّعر والغربة المشتهاة، وتُتْعِبُها شَهوةُ الياسمينْ.

كماءٍ هوى من جروح السِّلال، أنا هاهنا في أعالي الكلام أُحاول فَتْحَ الكتابِ الأخيِر لأَعثُر عمّا يقول الغريبُ لظلّ الغريب: هي امرأةٌ لا تبالي بِحبَّكَ، لا، لا تفكّرُ فيك، ولا تشتهي أن تنام ضعيفاً على ركْبَتَيْها، هي امرأةٌ لا تُحبُّ القصائد (كل النساء اللواتي عشقنكَ لم ينتبهنَ سوى لاشتهاء القصيدة، كنّ يُردْنَ البقاء هناك، بعيداً بعيداً على مسرح الشِّعر، كُنّ يُحاوِلْنَ لو يحتوي وجهَهُنَّ كلامُكَ) لكنّها امرأةٌ غيرهنّ فلا تتكبَّدْ عناءَ الكتابة، قد يَصْلُحُ الآن بعضُ السُّكون، وبعضُ الشُّرود، وقد ينفعُ الآن لو تستطيع استعارةَ هذا البياضِ الفسيحِ السجينْ.

ومن جملةٍ لم أجدها بكلِّ الرّسائل حاولتُ أنْ أكتُبَ الشِّعر عنكِ، فلمْ يَحضُرِ الشِّعرُ إلّا قليلاً، وأنتِ الكلامُ البسيطُ البهيّ، وأنتِ الكلام العميق الشقيّ، وأنتِ التآويل والظاهر الأنثويّ، وأنتِ المكانُ العليّ المكين.

أنا الآن في حيرةٍ مثل ربٍّ وحيدٍ عميقِ السؤال، يعاتب كفَّيه: كمْ كُنتُ ربّاً وحيداً، وكم قد صفَعْتُ العدالةَ حين ابتدعتُكِ من غَيمتينِ وسُكَّرةٍ من كلامٍ ومِن فِكْرة العائدين إلى إرضِهِم بَعد تِيهٍ، وكيف ابتدعْتُ النساءَ جميعاً جميعاً بماء وطينْ.

على وحدتي في أعالي يديكِ أُحاولُ أنْ أستَعيدَ يَدَيَّ ووجْهي، وكلَّ الذي من دمي فيك يا امرأةً من غناء السّواحل، وامرأةً من جماع الشمال البعيد مع البحر أقصى الجنوب مع النهر هذا المسافرِ عكس الخرائط، هَلّا أعدْتِ ملامح قلبي إليّ، أنا هاهنا لسْتُ إلّا بقايا انكساراتِ كُلّ الرجال الذين ادَّعَوا أنَّهم لم يموتوا من العشق لكنَّهم كاذبون، ولستُ سِوى ما تبقَّى من الملْح والبَحر في خاطر المُغرَقين.

سألتُكِ بالشِّعر أنْ تَذهَبي في الغَيابة، هذي الأُنوثة أصعَبُ من تُرَّهاتي الكثيرةِ، هذي الأُنوثة أعلى من النَّثر، أعلى مِنَ الشِّعر، أعلى من الـ... سَيَكتبُني اللهُ لو قُلتُ ما بي على دفْترِ الخاطئينْ.

نَعود مِنَ الحَبِّ دوماً بِـ «خُفَّيْ حَنينْ».

1. الغلاف
2. مازال هذا الليلُ يُنجبُ نجمةً
3. مازال هذا الليلُ يُنجبُ نجمةً
4. وحيداً سوى من يديك
5. لك كل شيءٍ
6. تعِبَ المؤنّث في دمي
7. آخر ما تبقى في «الطويل» من الحنين
8. عشر أصابع للّه
9. تداعيات حرّة لـ «جميل بثينة» بعد الموت
10. مرآة لوجه عمر بن أبي ربيعة
11. شغبٌ شتائيٌّ حارّ
12. لصُّ الحدائق/ نصُّ الحرائق
13. سلاماً على وزن خصرك
14. مُتْ في يديَّ لكي أحبّك
15. هذي الغمامة تحت ابطك وردة أم ياسمينْ؟
16. مِن امراةٍ لا تُبالي
17. حَدَّادٌ لسِّكة المسافة
18. أتعبتُ نفسيَ بالنّشيد
19. من أين نأتي بتأشيرة للدخول إلى الحب؟
20. نعود من الحب دوماً (بخُفّي حَنين!)
21. مِثل الذي يرحل الآن عن بيتهِ
22. ثوب قصير
23. غريبٌ هو الحُبّ
24. لو انني امرأة ٤

25. سيّدة الكائنات اللطيفة